رواية
أنا لست وحيداً
الجزء الثالث
جاسم العرفه

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

▯ .•*""*• *Kenny* •*""*•.▯

أنا لست وحيدًا

جاسم العرفة

الجزء الثالث

((في أعماق كل إنسان تختبئ إرادة القوة، تنتظر ساعة الإفراج. حين تمنحه السلطة، يبرز وجهه الحقيقي: إما أن يرتقي فوق الجموع، فيصبح خالقاً لقيم جديدة، أو ينحدر إلى أسفل سافلين، يعبث بالأخلاق كما يعبث الطفل بألعابه المكسورة. هكذا تُعرف النفس، لا بالمعتقدات التي تدّعيها، بل بالقوة التي تمتلكها وما تفعله بها))

جاســــــم

هنا كانت البداية..................

" بدأ الانتقام المرير......"

"سيكوفي....."

"لغة سيكوفي المحرمة......."

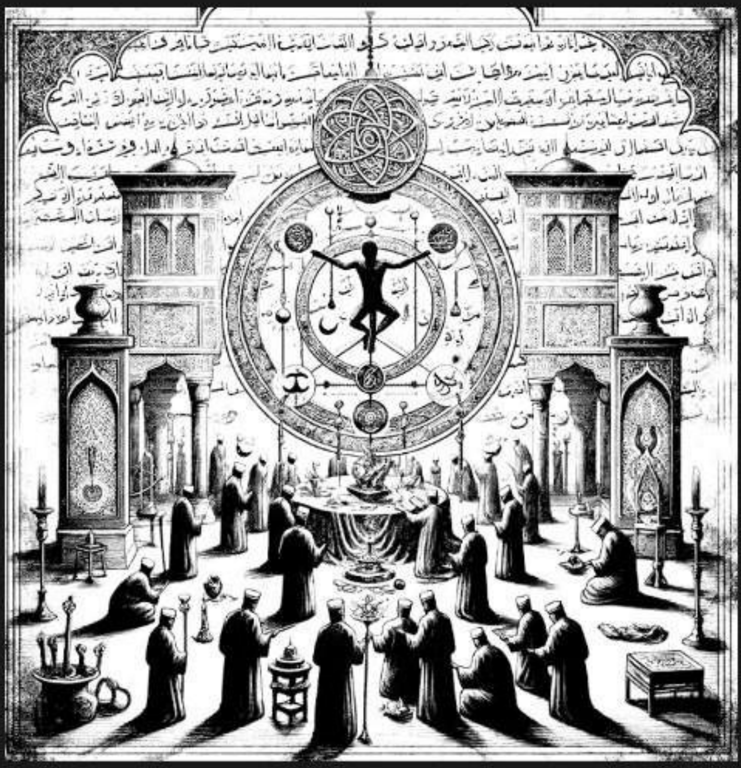

"أقسم بقوة سيكوفي. أن لا رحمة ستلوح في أفقكم، ولا لحظة هدوء ستتسلل إلى لياليكم. سأتبعكم في الظلام، حليفاً لكوابيسكم وسأغمركم بغياب الراحة مذيقاً إياكم الألم السحيق.....

الساعة السادسة والنصف صباحاً تقريباً، المآذن في عدة أماكن حولي بدأت بتكبيرات الصلاة، وخيوط الشمس تخترق شعب أوراق النخيل المترامية خارج نافذة الغرفة. لقد تم الاعتناء جيداً بهذه الأشجار حيث شكلت مظلات كبيرة تأوي أسفلها بعض المقاعد الخشبية البيضاء، إضافة لبعض الممرضين الذين كنت أراقبهم منذ فترة، يخرجون بمفردهم ولوقت وجيز فينتهزون الفرصة لتدخين بعض السجائر بنهم وينفثون الدخان على عجلة من أمرهم بطريقة أشبه باللهاث أحياناً لا ينهون سحبة أو اثنتين قبل أن ينادي عليهم عبر مذياع المستشفى للتحرك بسرعة وضبط أحد المرضى الذي افتعل مشكلة ما في المحيط.

تكون الساحة في بعض الأحيان فارغة ومقفرة، القطط تموء هنا وهناك باحثة عما يسد رمقها. تتلصص على العصافير التي يقودها جوعها إلى فتات

الخبز اليابس الهارب من أكياس القمامة السوداء المتكئة على الجدار قرب باب المستشفى الرئيس، ثم ودون استئذان ينقض الموت بمخالبه الحادة ليفتك بالعصفور الذي غشي عليه من شدة الجوع وبدأ بالتقاط أنفاسه وقطع الخبز المنثور بين الحشائش دون أن يدرك الخطر القابع خلفه.

أكثر ما يغريني مشهد ريش العصفور وهو ينفجر، ظننته في المرة الأولى تمويهاً منه ليتمكن من النجاة. كانت تلك بقاياه التي تطايرت في أقل من ثانية وظل جسده معلقاً في الفك المبتسم لقط امتهن الصيد وسيلة للنجاة هو الآخر.

- "النجاة!، هه"

لا يمكن لشفتي التلفظ بتلك الكلمة دون أن أشعر بالقشعريرة بذلك الضعف.

لقد جبل الجنس البشري على مشاعر بالية لا يد له فيها. هو بحاجة دوماً للسعي وراء الأمان. أمان أشبه بحبس الروح في قمقم بانتظار أن تخرج للنور أو أن تظل قابعة منزوية في العتمة وهي تتخيل شكل الحياة.

عموماً، لا شيء يأتي من فراغ وكذلك وجودي هنا. في حصار هذه القضبان الضيقة والخانقة والتي يصعب فيها وصول اليد بسهولة للخارج إلى الزجاج المقابل ومن المؤكد أنه تم تصميمها على هذا النحو منعاً لي من الاقتراب ومحاولة أذية نفسي أو أذية أحد آخر في هذا المكان.

منذ عدة أيام لم يقترب أحد من الغرفة سوى ذلك الممرض السمين أشعر به حين يكون قادماً نحوي. قدماه تحفران البلاط وهما تجران جسده الثقيل قبل أن يقتحم المكان كأنه عربة مصفحة.

إنه يثير الجلبة بطريقة تبعث على الاستفزاز حتى رائحته المجبولة بالدهون والمعقمات تصنع خليطاً قذراً يلتصق في جدران الغرفة، بينما يتجول حولي رفقة الطعام والدواء على تلك الطاولة البيضاء ذات العجلات المتهالكة، ودائماً ما يلج للغرفة حين يفتح الباب بلهاثه قبل يديه محاولاً قدر الإمكان عدم التواصل معي ويقترب واضعاً الصينية المحملة بقطعة من الخبز وبيضة مسلوقة وملعقة من اللبن لا يمكن أن تشبع قطاً، قبل أن يخرج من جيوبه

الواسعة عدة حبوب من الدواء المهدئ وكأس ماء بلاستيكياً.

جربت سابقاً ألا أنساق مع هذا الروتين اليومي، لكن جسدي الهزيل منعني من المقاومة وأجبرت على ابتلاع الحبوب بالقوة، تلك القوة التي تركت علامات واضحة ومؤلمة على رقبتي ويدي. اكتشفت لاحقاً أنه من الأفضل أن أتناول الدواء بهدوء. اكتشفت لذة ذلك الشعور الذي ينتشلك من الغرفة ويحملك للخارج. حيث يمكن لي أن أحتال على هذا السجن المريب وأتسلل دون أن يدرك أحد أنني غادرت الغرفة حتى.

- "نشوة بلا طعم، وبلا أثر".

هكذا دائماً تنتهي الجولة خارج القضبان. مع انتهاء مفعول تلك الحبوب المهدئة. أعود لأستذكر بعض الصور المتخيلة داخل أروقة المستشفى، وخارج محيطه أيضاً. في البداية كانت مجرد مشاهد متداخلة فيما بينها.

صعب علي فصلها لما تحمل في طياتها من حقائق وأوهام مع الزمن تطور الأمر ليغدو أشبه بنزهة.

صار انتظار الدواء أشبه بالمكافأة، وبلهفة طفل كنت أجهز نفسي للمغادرة كالليلة التي تسبق العيد وغدت المشاهد أكثر وضوحاً حتى الرسومات أو الخربشات الممتدة على جدار الغرفة والتي لا توحي بشيء كانت تعطي انطباعاً ساحراً.

مجرد ألوان مزجت بيد فنان مبتدئ أعطي الإذن ليشتت ذهن المرضى ويفتعل في ذهنهم عالماً حقيقياً يستطيعون مثلي الولوج إليه، ويمكن أن تكون في النهاية صفقة رخيصة مع متعهد بناء متخصص بالسرقة؛ لتوفير بعض المال ووضعه في جيوبه وجيوب مدير المستشفى.

الكثير من الاحتمالات يجوز لي وحدي اختيار الأنسب منها.

لم أحصل على قسط كاف من الراحة كي أخطئ الآن في اتخاذ القرار، ولا يمكن أن أخطئ مطلقاً.

يجب المضي في رحلة البحث عن أجوبة وعن سبيل للخروج في أسرع وقت هناك الكثير من الأمور العالقة والتي من الأفضل أن تنجز كما خطط لها.

- "ثمة خطوات في الخارج، ليس هذا وقع الممرض السمين!".

تسللت للسرير الأبيض وغطست داخله مثل السلحفاة كعادتي في اتخاذ وضعية المتخفي لأنصت لما يمكن أن تدور حوله أقاويل الغير، لطالما تمرست بالمراقبة والإنصات وكتابة الملاحظات ولو داخل عقلي.

هذا العقل الغارق الآن في نسيج هذا المكان الملعون.

هو هكذا منذ أن تم جلبه لم نتوقف عن إعطائه الأدوية المعتادة رغم أنه لم يقدم على أي محاولة هرب أو مشكلة أخرى.

- أعرفه جيداً فلا تجعل ذلك المظهر البريء يخدعك.

كانت تلك كلمات أدريان، ما أن نطق بها حتى تشنجت أوصالي.

أردت أن أخرج من قوقعتي كما تفعل السلحفاة وأقضم وجهه، لكنه كان حذراً جداً من الاقتراب، لذا تحت الشرشف الأبيض السميك شددت قبضتي بأقصى ما استطعت لأتحمل الاستماع لصوته.

لم أعر الصوت الأول الكثير من الانتباه لكن علمت أن اسمه الدكتور أحمد لا يأتي الكثير من الأطباء إلى الغرف إلا في بعض الأحيان؛ فالممرضون كثر هنا وتقريباً على عدد الأسرة، على عدد المرضى، وكل واحد منهم يعمل كحارس شخصي لمريضه.

لقد تم اختيارهم بدقة حيث لا حياة لهم، لا عواطف، لا هدف لهم سوى الالتزام بالقانون وبجعبهم المعبأة بالأدوية والتعليمات، ولا يمكن لي ولا لغيري أن يفر وأن يتحرر من كم هذا الحرص المطبق.

مع خروج الجميع انتفضت من تحت الغطاء. لم أستطع الصراخ.

قوي في شفتي، ولا أقوى على فتح فمي.

إلا أن عروق الدماء كادت تنفجر في وجهي وشعرت بحرارتها وبدورانها في كامل جسدي، كنت أحتاج لمتنفس أخفف به هذا الغضب ثار الدم من أنفي مثل بركان ينفث الحمم، ومع امتلاء المكان بالنزيف

المتفجر عاد الهدوء ليعم أرجاء السرير، وخف معه لهاثي واحتقان الصراخ لأتنفس الصعداء قليلاً.

مضى الوقت أسمع طنيناً حاداً في رأسي، والألوان حولي تتقارب وتتبعثر تموج الأشياء وتتشكل في زهو غريب صور من ماضي تقتحم الجدران الصلبة، ولا يزال الطنين مرتفعاً.

كنت هناك. في مرحلة ما من مراهقتي. تتملكني الجرأة لأنبش داخل مكتبه بعض الدروج كي أجد ورقاً أبيض للرسم، رغم تحذيره الدائم لي من الاقتراب من مكان عمله، لكن طيش تلك المرحلة لا يأتي عن عبث. لرائحة الخشب الموشح بحواف من المخمل الأسود المزينة المكتبة الصغير وقع ثقيل على من يزور المكان للمرة الأولى الستائر الترابية المنسدلة تمنع الضوء من أن يلج للداخل فتفوح الرطوبة لتمتزج بالهواء وتلتصق بالجدران والكتب والأقلام والحقائق المخبأة.

تم ترتيب المكان بأسلوب أنيق ودقيق. كل شيء في مكانه الأقلام وعلب السجائر ولفافات من الأوراق والرسائل. تم تصنيف تلك الأشياء بطريقة هندسية

مرعبة، لا تمت له بصلة خارج حدود هذا المكتب. لقد عهدته تلك الفترة ضيق الخلق كثير الجلبة وفوضوياً في اتخاذ القرارات حينما يصعب عليه إيضاح فكرة ما. لدرجة أنه مال في كثير من الأوقات إلى تحطيم الأشياء، لإيقاظ الوحش الكامن داخله عنوةً؛ لذا من الغريب كيف امتهن هذا النوع من الصبر لترتيب أغراضه الخاصة. اشتهيت وأنا أتابع التنقيب بحذر لو تحول بي الحال لأداة من أدواته يعتني بي ببعض الحب، لو رتب حياته معنا بهذا الشكل ربما ما وصل بي الحال إلى هنا!!

"هناك صوت خارج الباب. بالتأكيد إنه هو!!".

ارتعدت في مكاني وتجمدت. لقد أمسك بي. لا تزال يدي تمسك مقبض درج المكتب ونبضات قلبي تعلو بشكل جنوني، وعلى هذا المنوال كان بقية جسدي قطعة من الخشب القديم تفوح مني رائحة الخوف فقط.

- دكتور، دكتور أسرع

قطع من الشاش مسحت فمي وذقني ثم تم إدخال بعضها داخل أنفي لإيقاف النزيف. اختفى المكتب في لحظة واستطعت الهروب في آخر ثانية. من المؤكد أنني لن أعود إليه مجدداً.

- ماذا حصل؟

- لقد وجدته هكذا ينزف من أنفه.

اقترب مني الطبيب وفتح عيني كعادته مع الآخرين حين يفقدون الوعي، إلا أنني صاح جداً لدرجة أني أجرب الابتسام بعد نجاتي من براثن أبي.

رفع أحد أكمامي وبدأ بقياس معدل ضربات القلب والضغط وكل تلك الفحوصات المعتادة. شعرت بنبضي ينخفض مع تحسس سماعته لصدري، حيث كانت باردة ومدغدغة في الوقت نفسه.

- الأمور جيدة، بكل الأحوال راقبه باستمرار وأعلمني في حال طرأ شيء جديد.

- حاضر دكتور.

خرج الممرض بعد أن أتم تنظيف المكان وتغيير الشراشف التي لوثت بالدماء، دون أن ينسى أن يسدل

ستارة النافذة ويغلق الضوء كي أنام.

لا أعلم ما الرابط الذي تداخل مع تلك الذكرى، ولكن لا بد من تفسير ما على العموم أشعر أنني منهك لحد كبير ويجب أن أستسلم لارتخاء جفني وأتناسى مؤقتاً كل الألم الذي يتربص بي. إن التفكير الزائد بالانتقام سيشتت ذهني ويحيدني عن جادة الصواب.

في العادة أستغرق الكثير من الوقت لأتمكن من النوم حيث تمر على رأسي ذكريات وتفاصيل محددة من ماض ليس ببعيد تثير حفيظتي وتقلق راحتي، فأتقلب عدة مرات قبل أن أرسو على شاطئ الحلم. هذه المرة لم يتسن لي التوسل للنعاس ومحاكاة تجربة النوم. لقد خانني الوقت ولجم أصوات الأفكار المنددة بالغياب.

لم أدر أن سؤدد تلك الليلة غفا أيضاً معي، وانكفأ الهدوء عن بقاياي المتغلغلة في جسدي المحنط.

الألم لحن قديم للعذاب ولد على يد قابلة ليس لها أطفال، ولو أنني اخترت شكل الحياة التي أريدها لما كان للفرح أن يهلل بقدومي مهما كان المكان الذي يعلن وصولي، مهما علا سقف توقعاتي عن الحب

الذي يؤوي قطعة اللحم الصغيرة الصارخة هذه. من المؤكد أن للحزن قراره خاصةً حين تتم مؤازرته من القدر فلا حيلة لي في الخيار ولن أتباهي بوحشية الظروف أو ألعن الفرح، فالمجد لعذاب يكون بخاتمة دون بؤس دون لعق حذاء الأمل.

- "سيكوفي".

كانت الكلمة الأولى تحت ذلك الغطاء الجلدي المهترئ الذي لا يريد أبي أن يصل إليه أحد بالتأكيد؛ فقد جمل ورتب كل ما حوله وفوقه كالفخاخ لمن يساوره الشك عن الشيء المخبأ أسفل طبقة من الورق المقوى.

لا تزال يدي على مقبض ذلك الدرج لكن لا صوت في الخارج.

أتذكر صوت الهواء المخترق لمجرى التنفس.

هدوء مريب و اختلاجات داخل صدري تثير الفوضى. كأنني ألفظ أنفاسي الأخيرة وأنا أحرك وأحفظ أماكن الأشياء لأعيدها لاحقاً إلى مكانها. خشيت حينها من صدى ضربات قلبي أن يُسقط أحد الأقلام أو يخدش بعض الورق الذي أسحبه برفق.

القوة التي تقنع جشعي باكتشاف هذا المجلد الغريب أعتى وأشد صلابة من أي قرار أشد من عنادي في التورط في المصائب التي تسببت بها أثناء نشأتي ولحين تلك اللحظة شعرت بالتصاق أصابعي على الغلاف الخارجي، شعرت به وكأنه حي. خاصة حين لفظت ما عنون داخل أول صفحة فيه.

- "سيكوفي".

"يعود بي الوقت لأستذكر تماماً ما حصل. لكن لم الآن؟"

لفظت الكلمة وفتحت الصفحات وحدها مثل أبواب متتالية رموز تتحرك وألوان تشع. عشرات الأصوات علقت داخل ذهني واختفت في اللحظة ذاتها.

نعم، أعود لأشاهد كيف حل البياض داخل المجلد، حين توارت كل الحروف كأنها سراب، وكأنها لم تكن بل جاءت من العدم وغابت لا أعلم ما جرى لاحقاً لكن أنا على دراية تامة بأن حياتي انقلبت رأساً على عقب منذ قرأت المجلد الغريب.

"وأعيد السؤال، لم الآن؟ وأين تلاشت كل تلك

النقوش ؟ كيف نجوت من غضب أبي؟".

يتوقف شريط الذكرى هناك، لا قدرة لي على الملمة قصاصات تتمة القصة حياتي أشبه بقرص رقمي يتم مسحه وإعادة تعبئته وفق هوى قوى متحكمة بي. لا أنكر أنني أنساق أحياناً مع نشوة الألم، مع سوداوية أفكار تنتهز الفرصة لإقناعي بأن الحزن مسرح الملوك حيث لا يصدح على خشباته سوى نحيب لا يمكن لبشري عار من الانكسارات أن يحتمله.

في المجمل أستطيع أن أقول إنه بينما مارس الجميع حياتهم الطبيعية ذاك اليوم، تبدل شيء ما في كياني ولم أعد حراً. حتى قطع الأحجية التي استمررت طوال أكثر من 15 سنة ماضية في رتقها لم تصل بي سوى إلى لوحة مضرجة بالدماء، وإلى نهايات مسدودة كنت ألاحق فيها من كائنات لست واثقاً حتى اللحظة من حقيقتها، فربما كانت محض خيال من نسجي وتأليفي.

يمكن أن أكون أنا المتحكم بالقهر المفتعل وقاتل المتعة الأول والأخير، حيث كانت مها، أمي، أبي مجرد

أدوات استخدمتها لأتحرر من الكائن الغامض المتحكم والمتسلط على حياتي.

أشعر بأنفاسي تتسارع وأنا أحاول الاستيقاظ، وأفتح عيني مخففاً وطأة ماض له وقع الصداع. أتمسك بالغطاء وأدفع جسدي غصباً عني.

وأنا أعاني من آثار المخدر. أريد للنور أن يعود للداخل، لقد أنهكني الظلام وطوال سنين وأنا أجرب الفرار من قبضته. استطعت بعد عدة محاولات أن أصحو وأنهض فأفتح النافذة.

مفعول الدواء ما زال يُظهر الرسومات وهي تتلوى وتتعانق على الجدار مع شريط الضوء العابر من الخارج.

رغم الدوار المرافق لحالتي تبدو الحياة في الحديقة هادئة. لا جديد في الأسفل. يحتال بعض المرضى على مرافقيهم ويركضون في الأرجاء، ويعلو صوت ضحكهم بشكل جنوني إن أمكنهم الإفلات لعدة ثوان من المراقبة اللصيقة والعدو في الأرجاء حيث يتبعهم ظلهم فقط، قبل أن يختفي ويحل مكانه الحارس الشخصي مجدداً وهو يزمجر في وجه مريضه الذي

يسقط على الأرض وهو يرتعد أو يرفع يديه للأعلى في علامة صدّ للضربات التي ستوجه له كالعادة، ولا يوجد مهرب من العقاب.

وبالفعل، تصلب الوقت للحظة ليعطي المجال لأحد الممرضين بالهرولة صارخاً نحو أحدهم ليعلن انتهاء هدنة الأمن والسلام في البقعة الضيقة الخضراء من الحديقة وانقلابها لجحيم من نار، خاصةً حين أخرج من داخل ردائه الأبيض عصاً رفيعة وكأنه استلها من صميم قلبه كفارس ظلامي قادم على صهوة غضبه ثم بدأ بضرب المريض بعنف كبير دون أن يلفظ الأخير حرفاً.

تمعنت جيداً في وجه الممرض حيث لا ملامح له، لا ابتسامة، لا غضب، ولا أي تعبير يظهر حالته الحقيقية، بل مجرد فم صارخ ويد تعلو وتنخفض وتضرب، وكأنه آلة عقاب لن تتوقف حتى تنتهي طاقتها تماماً.

اللافت في الأمر أن بقية المرضى تعاملوا مع الحدث كجسد واحد كل منهم انزوى على نفسه مستقبلاً

الضربات الموجعة ذواتها والعصا ذاتها وبالتأكيد دون أن أي تعبير عن الشكوى أو الامتعاض.

شعرت وأنا أتكئ وأتمسك بأسياخ الحديد الزنزانتي أنهم يتناوبون حتى في تنفسهم، حيث منع الجميع من أن يصدروا صوتاً مرتفعاً أثناء الموعد الرسمي للألم. تلك سيمفونية عذاب تدربوا عليها لوقت طويل حتى وصلوا إلى هذا المستوى الخرافي من الاحترافية.

- لن يصل بي الحال لأكون مثلكم على الإطلاق!

وقبل أن ألتف وأعود للسرير دخل اثنان عبر الباب بخطوات سريعة خاطفة وهما يثرثران بحماسة. استقبلهما في منتصف الرصيف الواصل الباب المستشفى الداخلي الطبيب أحمد رفقة أحد الممرضين عرفته من نظاراته الطبية الواسعة وشعره الأشيب الكثيف بمشيته التي يتخللها بعض العرج وكان الاستقبال ودوداً بعض الشيء؛ فأغلب الأطباء يتقنون فن المجاملة والابتسام رغم برودة روحهم خاصةً حين يصبحون في موضع مسؤولية، وأنا شخصياً لي تجربتي الخاصة مع بعضهم ولي ثأر لن

تخمد شعلته.

- إنه هو!

عبر الجميع البلاط الأبيض والأسود المنقوش كأرضية الشطرنج متجهين للداخل نحوي نحو البيدق المحاصر في الأعلى، ونعم التقت عيناي به.

إنه هو بالتأكيد لا يمكن لتتنكره بالبدلة السوداء الأنيقة أن يخفي ملامحه القذرة، ثم لا أعتقد أنه رآني فقد كان يلتفت نحو الأعلى دون أن يتقصد البحث عني. رغم شكي بأنه حشد جيشه متقدماً صوبي بخطوات حذرة مع تخطيط واسع الحيلة.

- أدريان اللعين

قد أكون وقعت في شرك تروما مزعجة لوقت طويل، لكن لا أزال مسيطراً على مشاعري، لذا أخذت هذا اللقاء المرتقب بهدوء وببسمة صفراء الآخر ربما يكون الدكتور سعيد لكنه كان يعتمر قبعة سوداء تخفي وجهه، كما يبدو أنه أدار ظهره نحوي قصداً ولم يظهر منه سوى طرف أنفه المعقوف.

وجهي، قبل أن يباشر بعمل بعض الفحوصات الروتينية التي لا تنتهي من قياس الحرارة إلى معرفة

الضغط العام ثم كتابة الملاحظات والمغادرة مجدداً. هو آلة أخرى لا تختلف عن غيرها سوى باللزوجة والضجيج.

لم يأت أدريان. لم يجرؤ حتى على الاقتراب من الغرفة، لا أعلم لم كنت متشوقاً لزيارته هذه المرة. ينتابني الكثير من المشاعر المختلطة والتي يتمحور أغلبها حول التمعن في وجهه.

حفظ تفاصيله. تسيد اللحظة وقتل السكون المتوقع. للأسف فشلت الخطة. لم أتمكن من إحصاء الوقت لكني بالتأكيد انتظرت قدومهما أكثر من ساعة، وأنا أرتقب على أمل دخول أحد آخر بعد مغادرة الممرض. كان انتظاراً دون جدوى وأملاً أخرق.

للدقائق القادمة ثقلها. حين يقل الهواء داخل الأضلاع ويصغر مجال الرؤية وأبدأ بالتأرجح قبل أن يأخذني الهدوء مجدداً عبر طياته هناك عبر ثنايا الزمن المحشور في الزاوية المخفاة من ذاكرتي، حيث لا أمل بالعودة سالماً، مجبراً على التقاط حفنة من القصاصات الناقصة عن أحداث مربكة تخصني.

هكذا كان مفعول بعد محاولاتي الحثيثة للتمعن في التفاصيل تيقنت في النهاية من حقيقة أدائهما الفاشل في التخفي. جاء الاثنان للتحقق من تكتمي على الحادثة وعدم تعنتي وتكراري لما حصل فيزيدان عدد الجرعات المخدرة وأظل مغيباً عن الواقع متأرجحاً بين الوهم والحقيقة.

- يجب أن أتمالك نفسي قدر الإمكان.

أخذت نفساً عميقاً وانسحبت إلى السرير وتسللت تحت غطائه متأهباً لصعودهما إلى الغرفة. يجب أن أضع أسوأ الاحتمالات، وأضبط قلقي وغضبي، حتى لو حاولا استفزازي مجدداً، ومن الأفضل لي ادعاء النوم حتى لا أسقط في دوامة التوقعات.

لم يأت أحد الهدوء يغمر الممر في الخارج تماماً. إنها لعبة نفسية خالصة ينتصر فيها من يتوقع الحركة القادمة للعدو، ولن أكون البيدق أبداً في هذه الجولة.

- إنها لعبتي!!

لم أنته من الكلمة حتى رنت في أذني خطوات الممرض الثقيل تقترب فتح الباب كعادته بفوضى تعرقه ولهاثه واقترب نحوي حيث كشف الغطاء عن

الجرعات المتراكمة في دمي، والتي تغلق أمامي كل السبل لاستيعاب الوقائع وبمفردي داخل الجدران الأربعة والرسومات ما زالت تتماهى أمامي وتموج الألوان بشكل غريب. أعود لألتقط كلمات الحلم الأخير دون أدنى فكرة عن مدى تأثيرها القادم.

لا شك أن عودتي لتلك الزاوية المخبأة في حياتي لها أثر كبير، رغم أنني في السابق حاولت استحضار الصفحات المقطوعة من حزني وترميمها على أمل إيجاد ثغرة تثبت أنني كنت ولا أزال ضحية ماضٍ أجهل بعض تفاصيله.

- سيكوفي.

قلت تلك الكلمة دون أن أعلم ماهيتها، فقد تكررت مرتين في منامي بشكل غريب. أعدت تكرارها لأكثر من مرة دون حدوث شيء يوضح حقيقتها، كأنني أنتظر مفعولاً سحرياً لكلمة قد لا يكون لها معنى على الإطلاق، أو على الأقل تحرّض ذاكرتي لاستدعاء بعض الصور المنسية، والتي ربما دفنتها لأتجنب ألماً لا حاجة لي به.

وضعت كلتا يدي على رأسي، أفرك بأصابعي جلدة الشعر الدهني، لا أحد يعتني بنظافتي. يقوم الممرض أحياناً بتبديل الأغطية وتبديل الرداء الأبيض المفتوح والذي أجبرت على ارتدائه بأكمامه الطويلة التي تتجاوز بشكل كبير يدي، كما أنه يمسح وجهي وبعض أجزاء جسدي أحياناً بالمعقمات وأنا فاقد للوعي. أعلم ذلك لأنني صحوت ذات مرة ورائحة الكحول تفوح من بعض مناطق جسدي.

اجتمع الأطباء وتم توقيع وثيقة تقضي باستملاكي بالكامل والتلاعب بي بمشاعري بذاكرتي وبحريتي كأنني سلعة ما لا سلطة لي في الامتناع أو القبول، وقد أعاقب على رفضي الانصياع بالتأكيد؛ مررت سابقاً بتجارب مماثلة حيث تلاعبت بي قوى كادت أن تنهي حياتي، لذا لا بد من التخطيط جيداً قبل أن أنتهي بالتورط بإحدى ألعابهم القاتلة.

- لن يأتي أحد.

هذا ما خلصت إليه في النهاية، فمجمل الحاصل الآن نتيجة عدم تحكمي بمصير لا قدرة لي على تغييره

ويجب أن أتماشى مع الأوامر بحذافيرها والتمهيد لاحقاً للهرب والابتعاد عن هذا المكان المشؤوم، حيث يمكن أن أطلق عليه هدنة مع موت ربما استطعت النجاة منه فعلاً.

تخف وتيرة الضجيج عند انتهاء فترة الاستراحة القصيرة للمرضى، ويدخل الجميع، ويحرص الممرضون جيداً على عدم نسيان أحدٍ في الخارج. لاحظت طريقتهم الفظة في اقتياد الناس إلى الداخل كقطيع الماشية.

يسير الجميع في خطوط القافلة بخطوط مستقيمة متجهة نحو البوابة، ويحيط بهم الممرضون من أكثر من جهة مثل الكلاب المسعورة لئلا يخرج أحد خارج الرتل تأثير المخدر يلعب دوره في انصياعهم للأوامر، ويجعلهم مغيبين مثلي أحياناً عن الحقيقة.

حل المساء. لا يزال الهدوء مخيماً داخل الأروقة، مع بعض الأصوات الخفيفة التي تحك عظام جمجمتي من الداخل، وتخز جلدة رأسي.

أغلق أذني براحتي يدي لأميز الصوت الذي يختفي على الفور. تعود الأصوات ما أن أرفع يدي كأن الصوت قادم من الخارج.

لكن لا شيء هنا على الإطلاق. لا شيء سوى سكون الظلام الدامس المطبوع على النافذة والغبار مع بعض الأثر الأصابعي التي تراقص ضوء النهار.

مع قرب موعد الجرعة القادمة أستشعر التفاصيل الدائرة حولي بشكل أوضح. لا يتأخر الممرض بتوقيت الدواء أبداً.

لا يصاب بالملل ولا بالتعب ولا بالحمى. لا تعنيه الحياة وما يجري خارج أسوار هذه الجدران وكأنه قطع عهداً على نفسه ألا يفارق ظلي، وربما تم الدفع له من أجلي.

- "كم سيكون ثمن ديتي؟!".

يعود الصوت أقوى داخل رأسي. مثل توقف فجائي العجلات سيارة مسرعة.

كان ملقى على الأرض.

- هل تأخرت في موعد الجرعة؟

- لا، ليس من عادتي.

ضغطه مرتفع قليلاً حاول أن تراقبه هذه الليلة. قد ترتفع حرارته بفعل الجرح المفتوح، وربما نحتاج لاحقاً لأخذ صورة للاطمئنان.

- حاضر دكتور.

هذا ما استطعت التقاطه من الحديث الدائر بين الطبيب أحمد والممرض يظهر أنني سقطت لكن لا أعلم ما حصل. ذاكرتي مشوشة وهذه المرة أصبت في وجهي.

يوجد وخز شديد حيث تم كما يبدو تقطيب الجرح. بدأ الدوار أيضاً بأخذ حيز لا بأس به من تركيزي. اللوحة في عقلي ناقصة دائماً ولا أستطيع استكمالها، فهناك ما ينغص علي لحظات الهدوء.

إرادتي خالصة للغيب لا سلطة لي عليها، وكأن سحراً كتب على أحد قمصاني الرثة ثم تم ردمه في بقعة لا يمكن البشري الوصول لها.

كانت الأفكار تخترق حلقي الجاف، وأشعر بعطش شديد. لقد استبدل الممرض بالحبوب حقنة كأنه

يريد الانتقام مني لتحييد مسار جدوله الزمني الدقيق.

- إنه أحمق!!

بربع ابتسامة تمتمت تلك الجملة قبل أن أغرق في غيبوبة لا أعلم متى أصحو منها وأنا بكامل هويتي.

"سيكوفي، المجد لك، الخلود لك."

الوقت يشير للنهار. استيقظت وأنا أتمتم تلك الجملة التي حتى الساعة لم تكن ذات معنى، ولكن أعتقد أنها مربط كل شيء، وأكرر السؤال ذاته:

- "لم الآن؟!".

لا أشعر بالدوار، إلا أن رأسي ثقيل يصعب حمله عن الوسادة وعلى غير العادة، على عكس جسدي فهو خفيف جداً أستطيع الطيران به لو أتيح لي القفز الآن من أعلى برج أو طائرة، لو استطعت أكل قضبان الزنزانة بأسناني وإذابة الزجاج المقابل بلعابي. يتملكني إحساس بأنني قادر حتى على المشي على الجدران دون أن أكون سحلية، مع أطراف ضخمة قادرة على دوس من يقف في وجهي، سيكون المشهد مربكاً ومضحكاً في الوقت نفسه، متوازياً مع غضب شديد

يشتعل كالدموع التي تحرق وجهي الآن، حيث أستطيع شم الجلد المعشق بالدم برائحته الطازجة العذبة.

تعلو في الخارج قهقهات غريبة. الضوء يخترق شفة النافذة ويُقبل الجدار المقابل لي، وأنا بدوري أجرب النهوض كشتلة ذابلة.

لو قدرت على الوصول إلى النور فلربما تمكنت من استجماع طاقتي".

أقول في قلبي وأشرع له استنباط أي وسيلة للفرار، دون النظر إلى الخلف، بل الهروب بمكر وبأقصى سرعة متاحة.

- الدماء لها مفعول الأفكار، تثقل رأسي!

ربما لو استطعت النزيف قليلاً لأخفف كميته التي تبطئ حركتي، ومن الموج الذي يندفع ويضرب قطع الجمجمة المشكلة للأحجية، سأتفوق على نفسي وأثبت أنني قادر على التحرك كيفما شئت؛ ليتسنى لي اقتحام المشهد الجاري في الحديقة واستراق السمع والنظر وحفظ الوجوه. قد يساعد أيضاً شرب القليل

من السوائل الحلقي الجاف، بغض النظر عن طبيعتها! العطش يمزق الكلمات وهي تخرج، وأقف عاجزاً عن رتقها بأسلوب دراماتيكي رتيب.

خيل لي أن الباب ينفتح؛ فأخرج على كرسي نقال مع الممرض إلى الرواق الطويل، حيث أبواب الغرف المرقمة تصفق لي وتحفزني على الاستمرار إلى خط النهاية. في آخر الممر يوجد المصعد الكهربائي وعلى بابه رمز سري في الخارج، فيغلق ذاك السمين المكان علي حتى يدخل شيفرته ويمنعني من رؤية ما يكتب وكأنه لا يعلم قدرتي على اختراق جسده الدهني وإجباره على البوح بكل أسرار هذا المكان البغيض.

حين أصل للأسفل أرفع رأسي عالياً. أتذوق طعم الهواء وأتلذذ بأصوات المرضى، وأمر بالجميع الذين وقفوا في الدور لألقي عليهم التحية وأمضي.

غريزة السعادة تتفوق على الحزن. ترتب يومي وأنا أرتع مثل خروف صغير في جدائل النسيم بين ساق النخيل العالية وأفخاذ الممرضين والأطباء العابرين.

خيل لي أنني أمتعض من الأصوات المزعجة لذا ألقي لعنة على مفتعلها؛ لينهار من البكاء بصمت عظيم

حتى تجف عيناه فتهويان كحبات العنب إلى الأرض وتضيعان بين أحذية الجموع التي وقفت تملأ جيوبها من الثمار المتساقطة مثل النمل الجائع، قبل أن تبتعد لتقتات بعضها بهدوء بعيداً عن فكوك الآخرين ولعابهم السائل.

يتملقني البعض راجين بعض اللعنات الأخرى ليسدوا رمقهم من الخوف من الغضب، ومن الخلاص.
لست منجماً للسحر لكن قلبي موشح بسواد أنيق قاتل، ولا أعلم كيف أنقل هذا الشر أو أتحكم به.

هي غريزة خالصة وأنا قمقمها. أستطيع فقط تحييد ألمي الخاص وكبت جسدي عن التذلل للألم، فاللذة خميرة العذاب.

المجد دائماً وأبداً له.

- هناك عاصفة رملية قادمة!!

صاح أحد الممرضين برفقائه ثم هرول يجمع القطيع قبل الولوج إلى الزريبة، الكثير من الخراف حولي تسير على قدمين إلا أنا ما زلت على كرسي المتحرك.

لا صوت يخرج من فمي المتحرك لأطلب من كتلة الدهون الواقفة فوقي السير للداخل، جربت حتى القليل من الثغاء دون فائدة.

يبدأ الجميع بالتحرك بينما السماء مشحونة باللون الأحمر. إن أمطرت فستكون عاصفة من تدف الدم المتخثر البارد لموتى ضلوا طريقهم إلى الجحيم

وانتهى بهم الحال بسعال متقيح دموي يبصقونه نحونا ويلعنون الحياة، ولا يزال الممرض مخيماً فوقي متشابكاً مع سعف النخيل كمظلة هائلة.

ثم يقرر أخيراً المشي بعد أن فرغ من حك رقبته الثخينة، وهو ينظر إلى الغبار الثقيل الهابط المتلاعب بالأشجار الضخمة والعاجز عن تحريكه.

لا يغريني المشهد الريح تقتلع أسناني من مكانها. كمية الغبار المتسلل إلى معدتي القاحلة ترفع كثيباً صغيراً، والباب الضخم يتضيق أمام عيني الغائرتين في رحم العاصفة.

- أسرع، أسرع ما أبطأك يا رجل.

يخاطب أحد الممرضين مرافقي الشخصي بلهجة حادة، وهو ينتظر خطواته البليدة وفتور سحنته.

يتبادل الاثنان جحودهما دون كلام وينصرفان كل داخل قسمه الخاص. المصعد مزدحم. يصعد وينزل بشكل متواتر. الجميع التزموا الصمت ولا صوت يعلو على هياج الريح.

- "أخيراً جاء دورنا".

قلت في نفسي بعد أن حرك الممرض الكرسي واتجهنا صعوداً. كان وقت العودة أطول ولا أعلم إلى أي طابق وصلنا.

- "يتقصد اللعين إخفاء ذلك أيضاً!!".

رغم غبائه الظاهر على محياه والمنعكس على كل المرايا حولنا. يبذل الممرض جهده ليكون نسخة متطابقة عن العقد الذي وقعه. من المؤكد أنه وصل المرحلة متقدمة من الجبن ليسلم دفة حياته هكذا.

فتح الباب وعبر بي إلى غرفة جديدة، كان بابها ذا مصراعين نصفه السفلي خشبي أبيض قديم، يظهر آثار الاحتكاك الناجمة عن كثرة استعمال هذه الغرفة بينما كان النصف الأعلى عبارة عن زجاج محجر أصفر. لم يتم وضع لوحة تشير للمكان، لذا

فقد كان عبور هذا الباب مغامرة يتصاعد حماسها مع نبضات قلبي المرتفعة.

- "ربما أجد زجاجة ماء في مكان ما في الداخل. وصل التصحر إلى أضلاعي وأنفاسي تضيق".

سعادتي حاضراً حتى حين أخذت الجرعة، ليقوم الاثنان بعدها برفعي ووضعي داخل بساط الجهاز الأشبه بالقبر، والذي بدأ بسحبي قبل أن يغيب عني الواقع.

- "لا جفاف في فمي".

استيقظت في غرفتي مفعول الجرعات يزداد سوءًا وبات التماس الواقع قضية شائكة، ولا أعلم أن كنت استيقظت فعلاً الآن أو أن الرطوبة العالقة في فمي هي فعلاً من أثر كأس الماء الذي جاء كالحلم. رغم ذلك لا يزال الشلل في أطرافي واضحاً، ويلزمني الكثير من الجهد لأنزل عن السرير. لن أجازف بوقعة أخرى. ما زال ألم الجرح الأخير يحرق وجهي.

بعيداً عن عجلة الأوهام هذه. أخذني التمعن بالغرفة ومحاولة فصل الوهم عن الحقيقة إلى تجريب وصف المكان الذي يؤويني، فحيث لا أستطيع

الحركة، كان رأسي ثابتاً ومعلقاً على الوسادة كما تعلق للتباهي تلك الرؤوس المقطوعة لحيوانات مفترسة في أكواخ الصيادين، بينما على الجدار المقابل تم طلاء الألوان بأسلوب وضيع غير متجانس.

خطر لي أن الدهان الذي تجرد من شعوره بالمسؤولية، والذي حاول اغتصاب الفن بفرشاته تم كشفه فهرول فزعاً ومسرعاً عن المكان.

لقد مزج الألوان ليفسر سيمياء شعوره وحده دون أن يبالي بمشاعر قاطني الغرفة، ليضع الناظر بالتأكيد في دوامة الشك والاستغراب، ويحاكي أكثر من فكرة تُحضّر في مخيلة من تعتريه الحيرة بعمله الفني الملتوي كثعبان لطيف.

كان يمكن أن يصبغ المكان بلون واحد لكي لا يصعب المهمة على نفسه، وعلى من يحاول شرح فنه أو التنكيل به.

"لو أستطيع الوصول لوجهي وتحريكه للجهة المقابلة!!".

تتحرك بعض أصابعي فقط، لذا سأستخدمها في عد الثواني وتسلية نفسي بإضاعة الوقت لا أكثر، وأشغل

عيني بتأمل اللون السماوي المنقوش وجعل تموجاته البيضاء المتواترة صعوداً ونزولاً، أمواجاً لبحر هائج وسأقطع في حلمي القادم بعض أخشاب النخيل من الحديقة، لأجمعها كأرضية قارب صغير، ثم أجعل سعفها سقفاً يحميني من حرارة الشمس وعواصف الدم حين أغادر هذا المكان البغيض.

لن أتردد في ترك هؤلاء الحمقى في الخارج دون أي ستار يؤويهم. هم يمرحون في فضاء المكان وأنا أصلب على فراش أحمق لو أمكنني اقتلاع الأشجار من جذورها لضمان حصار حقير أبدي لهم داخل هذه الزنزانة أسوة بي فلن أتردد مطلقاً.

رغم كل ذلك تعلو أصواتهم خارجاً، في سمفونية مدبرة لإغاظتي.

- "لا رحمة ستلوح في أفقكم!!".

أتمتم تلك الكلمات وأنا أتحسس النار تسري عبر شراييني جسدي مترعٌ بالغضب. لن أجرب هذه المرة تصويب أفكاري لن أكون ربان القارب.

سأترك غريزتي تختار وجهتها مهما كانت سئمت اختراع الحجج الواهية لعقلي في محاولة لتجميل الحقيقة.

فجأة فتح الباب، ثم أدخل الممرض نصف جسده للغرفة والذي كان كافياً ليصنع سداً هائلاً. أصابعي لا تتوقف عن العدو في مكانها، كأن لها قرارها الخاص الذي يمنعها من الانصياع لي، ولكن يجب أن لا يشعر هذا الكريه بما يجري.

أحاول قدر المستطاع خداعة وسلب حذره وإجباره وبطيب خاطر منه على إخراجي من دمامة هذا السجن.

لا تزال قدماه ثابتتين على المدخل وينظر للخارج، كأنه في انتظار أحدهم، أغمضت عيني مجرباً الإنصات قدر الإمكان لكن لا شيء لا صوت لخطوات تقترب، لذا أظن أنه يقف لاستراق السمع من الغرف المجاورة.

ربما ثمة أمر ما يجري هناك الجو كعادته هادئ أكثر من المقبرة، والتي يمكنك فيها أن تستمع لصرصرة حشرة أو صخب أحد الموتى وهو يصيح ندماً.

- أهلاً دكتور لم أشعر بقدومك خلفي!

- كنت في زيارة سريعة مع سعيد، ثم خطر في بالي جاسم وأريد معرفة آخر أخباره. هل من جديد حوله؟

- ادخل لتراه، إنه كعادته منفصل عن هذا العالم وهادئ للغاية مع بعض العوارض ذواتها التي أخبرك عنها سابقاً الدكتور أحمد.

- لا لا أنا على عجلة من أمري، لكن لا تثق به!

تردد أدريان قليلاً ثم تابع:

- قد ينفجر بك في أي لحظة، أو تعال، تعال معي قليلاً.

- أمرك دكتور.

أغلق الممرض الباب بعد أن أشار له أدريان بالذهاب معه، ليغيب بعدها لفترة وجيزة قبل أن يعود أدراجه مجدداً إلي، ويجلس لمراقبتي على كرسي جانبي حديدي قديم دون أن يتلفظ بكلمة.

مضى الوقت بطيئاً للغاية، يفتعل هذا الكريه حرباً نفسيةً معي وأعتقد أنه يكتفي بالنظر نحوي فقط،

لقد نظرت له خلسة لحظة جلوسه في مواجهتي، ولم يحرك ساكناً بعدها مطلقاً، ليعبر الوقت وهو ثابت. كأنه قطعة من الكرسي لا صدى له ولا أزيز يصاحب أنفاسه.

- "ماذا أخبره أدريان حتى غدا حاله هكذا؟!".

حرك الكرسي أخيراً. سمعت صرير أرجله الحادة تجرح البلاط لكن اختفى الصوت على الفور. لا أريد التورط في مبادلته النظرات المسمومة فيكتشف اشمئزازي الكبير منه، ولكن هناك شيء غامض يحاك حولي لا أستطيع مجاراة دهائه حالياً.

- "أقسم إنني أسمع صوت أنفاسه فوق وجهي".

لا أجرؤ على النظر، سأستمر في محاولة تجاهله ربما مل من الانتظار وغادر. لم يفسح المجال لي للهدوء. فقد أمسك بعض أصابعي التي كنت أجبرها على التروي، وحاول ثنيها للخلف قليلاً لكنه أفلتها فوراً، ليعاود مجدداً تكرار الأمر لكن بقوة أكبر وكأنه يريد كسرها، ظل يضغط بشدة دون أن يهتز بي رمش واحد.

- إما أنك مريض بالفعل، أو أنك أفضل ممثل قابلته!!

سمعت صوته للمرة الأولى وهو يضحك باستهزاء، ثم وقف والتف للجهة الأخرى من السرير.

مجرم مثلك يجب أن لا يجلب إلى هنا، بل يجب أن يتعفن في أكثر أقبية السجون حقارة. كيف تستطيع التعايش مع حقيقة قتلك لزوجتك وأمك أيها اللعين؟

ليس من واجبي رعاية شخص قذر مثلك!!

- "أدريان اللعين!!".

ما زال يقص الأكاذيب ويبرئ نفسه من الجريمة الإلصاقها بي، وهذا الغبي يصدق رياءه، فقد سمم أفكاره هو الآخر ليشتت الحقيقة التي أعرفها من خلاله.

- عار عليك!!

استمر الممرض في تمتمة كلمات تتقصد إهانتي. هو يعلم تماماً أنني لا أقدر على الرد. لا أقدر على إذاقته بعض الألم الذي يلحقه بي أنا مرغم على الاستماع

لترهاته ولشياطين أفكاره، ولكن لأي حد أستطيع تحمل وكبت هذا الجنون؟

بدأ وجهي بالتعرق وأنا أحتبس الغضب داخل قلبي. أشعر بالاختناق وصدري يضيق. عيناي اللتان تتحركان تحت الجفون بسرعة يكاد يسمع صوت احتكاكهما وقلقهما.

ثم فجأة توقف كل شيء حين هم بالمغادرة وهو منفعل بطريقة لا مغزى لها، لدرجة أنه أطبق باب الغرفة بعنف وغادر كالثور الهائج.

عاد السلام ليحيط بالمكان مع استمرار انتفاضة خفيفة لصدري تظهر مدى تأثير ذلك السمين الأحمق.

لا أستطيع إنكار سوداوية الأفكار التي انهالت على رأسي. الغيظ يفتك بي وأعصابي تنهار تحت وقع ما يجري.

- "لن يأتي أحد".

قلت بعد أن أخذت نفساً عميقاً موقفاً كل مظاهر التوتر على جسدي، لأفتح جفني بعدها مستسلماً للضوء الذي امتص كل السواد الحاصل، وأخذت

وقتي في استنشاق الهواء وحبسه داخل رئتي لأوازن قدر الإمكان نبضات قلبي مع هدوء اللحظات القادمة.

لا شيء يبقى على حاله حينما يبدأ الدواء بالانسحاب من جسدي. رغم حاجتي الملحة له والتمتع بشعور اللذة الغريب، لكن أصابني الإعياء من الشلل المرافق له، وأحتاج التخلص من براثن هذا القفص الحديدي بأي ثمن.

سأغدو وحشاً إن استمر بي الحال هكذا، لا أعلم أي صنف سأكون لكن بالتأكيد كم هذا الغضب لن يذهب سدى.

بين غياب الممرض والوقت المتقافز على الجدار، حيث يمتزج الليل بالنهار كقطعة موسيقية كلاسيكية أستشعر جسدي الذي استعاد جزءاً من عافيته.

أستطيع تحريك أقدامي بعض الشيء ورفع يدي ولو المسافة قليلة. وخز مزعج ما بين كتفي يحتم علي التحرك إنه أثر قلة الحركة التي أوهنت عضلاتي وضغطت على كامل مفاصلي وفقرات ظهري،

وأخشى السقوط على الأرض إن جربت تغيير جهتي لن يتردد ذاك الغبي في التنكيل بجسدي الممدد على الأرضية فربما لم يكتف جبل الدهن اللزج في المرة الأولى من الإفصاح عن قدر الكره الذي بات يكنه لي.

لن أفكر في مجريات الأحداث، فمجرد تذكر وجهه يصيبني بتشنج حاد في المعدة، لذا سألاحق خيالي خارج حدود المكان علي أتعثر بمحطة نجاة لن يجدني فيها أحد، ولن أقابل أحداً على الإطلاق، أكون وحدي في عالم يستبدل بالغضب النابت تحت جلدي سلاماً لا ينتهي، عزلة خضراء تكون حدوداً تفصلني عن وحشية من يجبرونني على الخضوع، على الذل.

كان الليل على وشك الهبوط، إلا أنني نزلت قبله. نعم استطعت الجلوس رغم ثقل رأسي وتخلخل توازني.

لأتوجه صوب النافذة مشيحاً نظري عن أمواج الجدار التي بدأت تهدأ، ثم اتكأت على حواف السرير مصوباً نظري وأذني إلى الباب خوف قدوم أحدهم.

كنت بحاجة ماسة لإزاحة الجليد عن أطرافي وإعادة ضخ الحياة في تفاصيل وجهي المتيبس.

- "لم تأخر؟".

لا أشعر بالزمن لكن وصولي إلى هذه المرحلة من الوعي إشارة واضحة على تأخر موعد الجرعة، والتي علي استغلال كل ثانية منها جيداً، ربما لن تتاح لي هذه الفسحة في قادم المرات. إذاً مدفوعاً بأمل ابتدعته للتو دفعت نفسي مستنداً على الحائط القريب، وحذراً من السقوط، ثم اتجهت في البداية نحو النافذة.

هناك إضاءة مصابيح نوافذ بعيدة لأبراج سكنية عامرة بالحياة، وهنا يستعمر الموت الحكاية مدججاً بالحقن واللعنات والشباب.

لم أجرؤ على الوقوف طويلاً. خاصة أنني خاو من الطاقة وربما تأخذني مشاعر الغبطة فأسقط على حين غرة في غيهب الشوق الأعمى للهروب من الأفضل التواري خلسة ورصد أي حركة يمكن أن تحصل خلف الباب، ومن الممكن أن أتسلل قليلاً ولو

لمرة واحدة أجازف فيها بالحصول على حصتي المسلوبة من الحرية.

تقدمت متحسساً الجدران وصولاً إلى البحر الذي كان قد هدأ قبل وقت وجيز، فتجاوزته سباحة وصولاً إلى الباب العريض المرتفع.

كم شعرت بقزمي أمامه مما أثار الرعب داخلي؛ لقد كان حجم ذلك الممرض يوازي حجم الباب، لم أشعر بضخامته سابقاً فقد كنت تحت تأثير الأدوية اللعينة.

- "علي الحذر من الوقوع في قبضته!!".

لم يكن هناك صوت صدى بعيد أشبه بالخوار كان

يخدش أذني الملتصقة على الخشب الثخين. لا أعلم ما يقومون به داخل هذا المستشفى، لكن أغلب الظن أن الريبة التي تحك جلدي لا تشجعني على الخروج واستراق السمع لما يجري، وما بين التردد وتحفيز جسدي على تجاوز هذا السور المقيت أمسكت المقبض وأخذت نفساً عميقاً، ثم عقدت العزم على الخروج.

- "اللعنة!!".

لم يتزحزح المقبض الدائري من مكانه. تم إقفاله من الخارج تحسباً لوضع طارئ، ولم أستطع إزاحة يدي التي أصرت على خلع المقبض من مكانه.

عاد الصراع ليحتدم بين ذهني المشتت في استحضار خطة مثالية لتخطي هذه المحنة، وبين غضبي المهيمن على كياني الذي يدفعه لتحطيم الخشب المسلح والممرضين والأطباء وكل من يحاول منعي من الخروج.

هذا الصراع الذي انتهى في جزء من الثانية، بعد أن حفرت خطوات الممرض الثقيلة المسرعة الأرضية اهتزت الأرض دون أن يهتز بي جفن واحد.

تراجعت بخفة وبحيوية افتعلها السخط الكبير على كل شيء، ثم قفزت داخل السرير مدعياً النوم على الفور، وتوازياً مع استلقائي دخل الممرض فعلاً بشكل فوضوي، ثم أخرج من جيبه الحقنة المعتادة على ما أظن فقد سمعت صوت غطائها الذي أزاله بسرعة، لذا فتحت عيني قليلاً لأتابع من خلف غشاوة أهدابي كم التوتر الكبير الظاهر عليه، لقد بدا واضحاً

فتحركاته الغريبة دلالة على حصول مصاب ما جعله يتأخر في قدومه حتى الآن.

- "هل أنت بخير؟".

صاح أحدهم بعد أن وقف على عتبة الباب.

- "نعم نعم، أغلق الباب!!".

كانت إجابته قصيرة حادة جعلت الشخص الدخيل يغادر فوراً، بينما وعلى هول التوتر الجاري أوقع الممرض الحقنة من يده لينزل للأسفل تمنعه كتل الدهن الكثيرة من اتخاذ وضعية ملائمة لالتقاط الأنبوبة.

أصبح حجمه الكبير واضحاً الآن، فرغم انخفاضه ظل جزء مسطح كالجزيرة فوق السرير، كان شكله غريباً ومقززاً.

لا أحتمل قذارة محياه. إنه لا يختلف عن أدريان وسعيد بشيء، هو أداة قاتلة مثلهما ولو لم يكن سبب وصولي إلى هذا المكان، فقد اتخذ قراره بعدم التواصل معي وإخضاعي لمحاكاة الألم بأكثر من شكل.

كان يتأفف وينفث الهواء من فمه مثل فوهة بركان وكما يبدو فقد أصبحت الحقنة بعيدة عن متناول يده لذا بدأ بدفع السرير ليحاول التقاطها دون الغوص خلفها. لم يعر وجودي أي أهمية، بل كان كل تركيزه منصباً على إرضاء غايته والالتزام بالموعد والأوامر.

- **"اخرج يا قطعة الدهن الزفرة!!".**

قلت في قلبي دون أن أدرك كيف نزلت إلى الأرض، إلى الجهة المقابلة له، حيث مددت رأسي ونظرت له بعد أن تشنج حلقه مع كامل تفاصيل وجهه وهو يحملق بي.

نعم قمت بمفاجأته ومفاجأة نفسي ربما لا فكرة لي كيف جاءت تلك الجرأة لأفعل ما هو قادم، وبأسرع ما يمكن كان يجب أن أسقط السرير على رأسه. هي ضربة واحدة إن أخطأت في إصابته فسأكون حفرت قبري بيدي.

لم يتسن له الصراخ. فقد ارتميت مع الوزن الكبير للحديد الذي هوى على جمجمته. سمعت صوت تكسر العظام دون أن يفتح فمه بحرف. أغمي عليه

من أول ضربة، فقمت بالالتفاف لأكرر رفع السرير وإفلاته بقوة

حتى تم سحق الرأس تماماً.

انزلقت قطع دماغه الطرية بين أصابع قدمي العارية حيث التحم الدم مع التلافيف الصغيرة الغبية، وتناثر في أرجاء الأرضية وعلى حواف الحديد والأغطية والجدران، وملأ المكان على أوسعه. لم أتوقف حتى انفصل رأسه تماماً عن جسده، كان المشهد مثيراً وشهوانياً، شعرت بشفتي ترسمان ابتسامة خفيفة، وأنا أميل للأسفل أجمع بيدي قطع عظام الجمجمة المفتتة.

كل شيء تم تحطيمه، أنفه المرتفع، عيناه الغائرتان في قحف رأسه، إلا لسانه الطويل بكل فساده بالفترة القصيرة التي نطق بها حقيقة ما يشعر به نحوي.

لا أدري لماذا جلست فوقه وأنا في كامل غبطتي، أعلن كسر قيودي وهزيمته كنت في أكثر لحظات سلامي حين باشرت بسحب الباقي منه إلى الخارج، إلى حيث

يرى الجميع مدى قوتي، وبالفعل أخرجته من تحت الأنقاض وبتصميم كبير على إيصال الجثة الهامدة، تملكتني طاقة هائلة تستطيع سحب الغرفة بأكملها وليس الجسد فقط.

انفجرت بالضحك وأنا أدوس صدره بقدمي، بينما خرج بالتناوب عدة ممرضين من الغرف الممتدة على طول الممر.

لقد وقفوا مثل تماثيل صلبة بعيون ترتجف وبدأ أحدهم يركض وينادي عناصر الأمن في المستشفى بينما اتكأ آخر على الجدار وقد أصابه الإعياء فأخذ وضعيته بالقيء والسعال والنباح على الأرضية، كانت الوجوه المصدومة تعبر عن هول ما ينظرون.

- سيحين دوركم!!

صرخت بهم بصوت ثقب الهواء كالرصاصة، قبل أن يصيب قلوبهم بالذعر ويعلق أجسادهم في شرك خوف لا يستطيعون الفرار منه، لقد أظهروا عكس ما كان يبدو عليهم، لم أعد أرى ذلك الموت المتصلب على سحنتهم، حين كانوا يجاهرون بالقسوة ويجعلون مرضاهم دمى للتسلية.

- "لا تتحرك!!".

جاء الصوت من خلفي دون أن التفت، عرفت أن أحد الحراس قد وصل للإمساك بي، لكنهم بالتأكيد لن يتهاونوا معي وأنا مجرم الآن في نظرهم.

ثم جاء ثلاثة آخرون من أمامي مدججون ببعض العصي السوداء الرفيعة المدببة ومتوعدون بتحطيمي إن أقدمت على تغيير حتى طريقة تنفسي، فما كان لي سوى الثبات للنجاة.

اقترب الجميع لإطباق حصار لا يمكن الفرار منه، ثم ارتمى علي أحدهم وأسقطني أرضاً وهو يلتوي ويعتصر يمنة وشمالاً ويلصق وجهي بالبلاط، لا أفهم لم كل هذا العنف، وأنا لم أبادر في فعل أي شيء. وقفت في مكاني ملتزماً بجبل الوعيد والتنكيل.

ليس خوفاً، بل أريد الخروج من تلك الغرفة، وأنا على يقين أنني لن أستطيع اختراق ذلك العدد الهائل من الممرضين والحراس، لذا اخترت أن أتماشى مع ما سيحصل لاحقاً بابتسامة خالصة.

- "يا لها من متعة!!".

منذ وقت طويل لم أشعر بالحرية هكذا بالعظمة وبالهدوء. رغم أفواههم المفتوحة وصراخهم المستعر لم أكن أخشى شيئاً، لذا استمرزت في إطلاق القهقهات العالية، بالمقابل كانوا يجربون تكميم فمي، ونأيي عن الاستمرار في السخرية من الموت. من جريمة لم تكن بيدي. هو من جلب لنفسه الموت ولم أكن إلا جلاده وسيد المقصلة على كبريائه.

- لا رحمة ستلوح في أفقكم، ولا لحظة هدوء ستتسلل إلى لياليكم!

صرخت مزمجراً بينما كان مجموعة من الأطباء يقتربون من بينهم لمحت الطبيب أحمد والذي تعامل مع الموضوع ببرودة خالصة، فلم يرتبك أسوة بباقي الأطباء والممرضين من بشاعة الجثة الممزقة، بل وقف يصور المنظر بجهازه المحمول موثقاً الحدث. لقد تحقق للتو أن أدريان وسعيد كانا على صواب.

شعرت بالعالم يدور حولي بعد وخزة شديدة. حيث لم يتسن لي النظر لمعرفة من قام بتخديري، لأغرق بعدها في نوم ثقيل جداً.

- "سيكوفي، المجد المجد لك... لهم العار الأبدي... سيك..."

تلاحقني رموز وشيفرة تلك الكلمة، بينما أصحو لأجد نفسي وحيداً على جبل من العظام المحروقة. أقتفي أثري على موائد الموتى، أراهم بفكوكهم التي انتزع الجزء السفلي منها وكأنه عقاب لجوع أبدي. أما أنا فكنت متخماً بالانتقام وبالمخدر.

وبكلمات أحسست بقيمتها حين تشرب جسدي رائحة الدم، رائحة الموت. وفي العودة للواقع، حيث لا نار ولا آلام متفحمة، ولا شيء يشغل المكان والذهن سوى برودة جدرانه. لا أعلم كم مضى من وقت كالعادة، لكن لا طنين لأجهزة طبية ولا سرير أبيض مريحاً، حيث وضعت على إسفنجة رقيقة ومتسخة، ودون وسادة.

بدت الإضاءة الضعيفة المنعكسة على الجدران الإسمنتية خانقة، تلك الجدران التي تركت دون طلاء مع رسومات خرقاء وألوان غير واضحة المعالم. يوجد حولي أيضاً كرسي وبعض الأوراق المقطعة

وأقلام فرائحة البول والقذارة تفوح في الأرجاء. لا أعلم ما حصل لهم ولا يهمني حتماً.

الشيء الأكثر إيلاماً لي هو تقييد يدي، بالسترة نفسها ذات الأكمام الطويلة المخصصة لتكبيل الشخص الأكثر جنوناً والأكثر خطراً في المستشفى. لا أقوى سوى على الابتسام وكأنني مدرك تماماً لما هو قادم.

صوت سلسلة حديدية يخترق الأجواء خارج الغرفة ومفتاح يعبر ثقب القفل فيحرره، ليفتح بعدها مزلاج الباب ويلج للداخل أحدهم، بعد أن طلب من الحارس الخفي الواقف وراءه أن يظل قريباً منه.

الضوء الشحيح أخفى في البداية وجهه، لكن مشيته العرجاء كشفت حقيقته. إنه الطبيب أحمد. وقد تحققت حين أصبح في قبالتي تماماً، لم يكن يحمل معه أي نوع من الأدوية. جاء أعزل تماماً للتفاوض أو ربما على الاعتراف بعدم جنوني، فينتصر حين يضعني على حبل المشنقة.

- هل تعرف اسمك؟

بدأ بأسئلة متوقعة كما يفعل المحققون، واستمر في طرح الأسئلة دون أن أجيب.

- أتعرف أين أنت؟ كم عمرك؟

أخرج من جيبه بعض الأوراق الملونة وقام بتوجيهها صوبي.

- ماذا ترى؟

كانت مجرد بطاقات لكل منها لونها الخاص، حيث بدأ بإظهارها بداية بالأخضر والأزرق وصولاً إلى الأحمر الذي توسعت معه حدقتا عيني، وأغلب الظن أنه انتبه لذلك أيضاً.

- "لم الآن؟!"

تساءلت لماذا لم يزرني سابقاً في غرفتي القديمة ولماذا أبقاني تحت رحمة الممرض والإبر المهدئة، ولم يحاول استقصاء الحقيقة مني، أو على الأقل طرح بعض الأسئلة التي تفضي بما يجول في فكري.

- "أيعقل أنني أهذي مجدداً؟"

استمررت بالمراوغة دون أن أفصح عما يجول بخاطري، فأشار للحارس والذي ذكر أن اسمه طلال بالاقتراب ليخرج من جيبه بعض الحبوب لإعطائي إياها اقترب فعلاً وضغط على خدي وشد شعري من

الخلف بعنف لأفسح المجال للحبوب بالدخول لم أتمكن من المقاومة وأجبرني على ابتلاع الدواء المخدر، ثم غادر بعد أن اطمأن أن الجرعة سلكت طريقها نحو معدتي.

- سيأكلك الدود هنا أيها السافل!!

قالها طلال بطريقة ساخرة وهو يهم أيضاً بالخروج ليغلق بعد ذلك الباب بالقفل والسلسلة، ثم يسير بعيداً وأنا أنصت إلى صوت خطواته المبتعدة وهي تتلاشى رويداً رويداً.

لم أحص الساعات، فالوقت هنا واحد حيث غابت النوافذ عن هذه الحجرة والليل والنهار سواسية، لا توجد علامات على نشاط خارجي دلالة على استيقاظ البعض وخروجهم للعمل الصمت مهيمن ومخيم على الوقائع.

- "أعتقد أنني تركت لأتعفن فعلاً في هذا المكان كما قال الحارس"

يساورني الشك قليلاً بمعضلة الحلول الضيقة، لا شيء أسلي به نفسي سوى تلك الخطوط الشيطانية الملونة والمفتعلة بعشوائية لها جاذبيتها وسحرها

الغريب ومع بعض القوة الباقية في جسدي حاولت الاقتراب من الجدران قدر المستطاع، حيث بانت لي الألوان المتنوعة التي تقص الحالة النفسية السيئة لمن قضوا وقتهم هنا، فتشعبات الألوان الداكنة والفاتحة عبارة عن خدوش حفرت عن قهر. تم دفن رسائل الوقت الأخير لمن قضوا أبشع لحظاتهم فيها. كل ذلك تراءى لي وأنا أنبش في بؤرة جحيم هذه اللوحات.

تراجعت للخلف بعد أن شعرت بدوار خفيف سيغرقني في فوهة نوم عميق قادم لا محالة، وقبل أن أغمض عيني تذكرت لحظات النشوة التي حييتُّها حين سحقت رأس ذاك الممرض، فمع فتور المشاعر السابقة لا أشعر بالانزعاج، ولم أدن ولو عقلة إصبع من أن أنشغل بالندم على العكس تماماً يقشعر جسدي حين أعود لما جرى، ويحل علي هدوء لا يمكن وصفه.

"هل كنت أنا من البداية؟"

وضعت رأسي على حافة الإسفنجة ثم غفوت بكامل إرادتي، ببسمة لا تفارق وجهي.

- أنت. استيقظ.

جمدت يداي المقيدتان بعد الاستلقاء لعدة ساعات بينما كان الحارس يتفنن في ركلي في أكثر من موضع حتى أصحو. له لهفته العجيبة للتنكيل بي كأنه خرم لوقت طويل من ممارسة طقوس وحشيته هو الآخر. كان شعوراً متبادلاً بالتأكيد لذا لم أظهر أي امتعاض لتصرفه.

سأقوم بتحرير يديك إياك أن يخطر في بالك أي تصرف طائش!!

اقترب مني وقام بإسناد جسدي ليتسنى له فك الأكمام المعقودة في الخلف. بينما ظهر خلفه خيال آخر الحارس جاء كنوع من الدعم لإحباط أي محاولة للإفلات بدا لي في الضوء الشحيح شاحب الوجه عريض الجبهة والكتفين، كأنه حائط إسمنتي قديم.

رغم ترهيبهما النفسي لم أبال بوجودهما، كما لم أبد أي مقاومة، ليس خوفاً، بل لأنني أدرك أنهما سيعاودان وضع الرباط بعد أول حركة غير مسؤولة أقوم بها.

مع عودة الدم ليسري في عروق يدي، أرخيت ثقلي على الجدار بعد مساعدة من طلال، ليظهر على الباب الطبيب أحمد الذي وقف يعاين المشهد دون أن يلفظ حرفاً.

كان يبدو عليه التوتر. لا أعلم كيف لكنني أستشعر أفكاره المتشابكة كانت مثل سحابة دخان سوداء هائلة تضغط على تنفسه وعلى نبضه، ليرتفع بعدها صوت جهازه النقال وينزوي خارج الغرفة لبعض الوقت ثم يعود.

تقدم الطبيب نحوي حاملاً مصباحاً صغيراً كالقلم، ثم قام بتمريره داخل عيني بعد أن تم تثبيتي بشدة من قبل طلال والآخر.

- لم قتلته؟

قال لي وهو ينبش داخل عيني كأنه يبحث عن حقيقة أخفيها، ليستمر بعدها في طرح الأسئلة، وقد بانت عليه بعض الشجاعة ليرفع صوته.

- أجبني!! ألا تعلم ماذا فعلت؟

استمررت في تجاهله، فلا أحمل أي إجابة تشفي غليله وغليلي. كنت سعيداً بما فعلته ولا أدري السبب.

- الطبيب يسألك، هل أنت أصم أم تريد أن أجبرك على فتح فمك القذر؟!!

تقاطعت أفكاري وصوت الطبيب مع جنون الحارس الآخر الذي انفجر بوجهي كان ينتظر الإذن ليوكل له الطبيب مهمة جعلي أنطق مهما كان الثمن، لدرجة أنه قبض على حلقي، وغرز أظافره مثل مخالب ذئب بري جائع يسيل لعابه.

- أفلته!!

لم يرد الطبيب أحمد الذي تبين لي أنه غير معتاد على العنف استخدام هذا الأسلوب، ولو مؤقتاً.

- لكنه لن يتكلم إلا إذا أخرجت لسانه من حلقه وكسرت أسنانه!

- اهدأ أو اخرج من الغرفة فوراً، لم نصل إلى تلك المرحلة بعد.

هو مريضي وأنا سأقوم بمعالجته.

- لكنه قتل...

أعلم ذلك!! لكنني أخبرتك بعدم المجيء إن لم تتمكن من استيعاب ما حدث والتحكم بأعصابك.

احتدم النقاش بينهما فنهض الحارس ممسكاً غضبه ليهم بالمغادرة، لكن طلال أمسك يده وأشار إليه بالتروي، لكن الآخر المعتاد كما يبدو على الوحشية رفض الانصياع. بينما ثقة الطبيب الذي أصر على كلامه تدل على مسؤوليته الكبيرة تجاه مرضاه.

كان لجدالهما الحاد أثره، كانت رغبتي بمهاجمة ذلك الحارس تعشش داخل رأسي، وأحاول رغم شراهتي للانقضاض عليه أن أخمد هذا الشعور، فما كان علي إلا التظاهر بفقدان الوعي ليتاح للطبيب التفرغ لمداواتي ويخف حينها حماسي للقتل.

بالفعل غادر طلال والآخر للخارج، الأخير الذي كان يعتصر يديه ويتمتم بكلمات غاضبة.

- لقد قتلت صديقه.

قال أحمد بنبرة حزينة بينما وضع يده وهو يتحسس نبضي، ثم أزاحني مجدداً إلى الإسفنجة

بعد أن اطمأن أن وضعي مستقر. ثم غادر خارجاً بعد أن أوصى طلال بجلب بعض الطعام وبطانية.

كان ذلك السمين صديق الحارس الغاضب، لذا كل تلك الكلمات المحقونة بالانتقام والتي تلفظ بها لم تأت عن عبث. أدرك تماماً إحساسه وهذا ما يزيد غبطتي.

- "سأفرغ معدتي!!"

خطرت تلك الفكرة في ذهني مثل ناقوس دق في رأسي، لم يكن دليلاً على الخطر، بل كان أشبه بتميمة حظ.

سأجرب تقيؤ الدواء دون أن أعترض على تناوله ربما يفسحون المجال ليدي فتتحرران علي الحذر أيضاً من ذلك الحارس؛ قد تساوره الرغبة بإيذائي مثقلاً بالحقد ونار النقمة المستعرة في قلبه.

- "سأكون بانتظارك أيها الغبي."

بعد أن أتم طلال إغلاق الباب. حاصرني الظلام لدقائق إثر انطفاء المصباح الصغير المثبت في الأعلى لسبب لا أعلمه، وفي خضم هذا الهدوء أغلقت عيني وأخذني التفكير عميقاً. صرت أبحث

في كل جزء ضئيل من ذاكرتي عن منفذ لأرى النور ، لأرى جاسم الصغير بعيداً عن مكتب أبي المريب. نظرت أعمق ما يمكن فسكون المحيط الآن يسمح بالذهاب بحرية، وبكامل ما أحمله من وعي ومن شغف للعودة للماضي.

تملكني دائماً الفضول للجري وراء المجهول، منذ صغر سني كما أحاول أن أذكر، كنت متيماً بلعبة شعبية تدعى (شرعت) أو شرعة، والتي تمارس من قبل بعض الأولاد الذين يقع الخيار على أحدهم للبحث عن باقي المجموعة تحت شروط معينة ولطالما كنت صاحب الحظ الأسوأ في الهروب والنجاة، فقد كان يتم الإمساك بي بسبب خوفي الشديد من الكلاب الشاردة في الحي التي مارست شغفها الكبير في مطاردة الجميع والنباح عليهم لإفزاعهم، لذا ورغم مهارتي العالية في التسلل والهرب، لم أكن أنجو إلا في مرات قليلة.

كبرت بحسرة تتوسد قلبي وسخط كبير على الكلاب حتى جاء ذلك اليوم يوم اكتشافي للمجلد الغامض.

انقلبت حياتي رأساً على عقب وأصبحت شخصاً آخر، ولا أستطيع نكران ذلك.

- جاسم هيا لنلعب.

صوت لمشاهد مقطوعة من ماضي جاء ليخفف وطأة غزارة الذكريات. كشف الماضي أوراقه كلها أمامي، ولم يعد ليخفي علي أي حدث نسيته أو أجبرت نفسي على نسيانه.

كان ذلك الصوت هو صوت خالد صديق الطفولة الكفؤ والداعم والمدافع عني في كل المواقف التي تحتاج رباطة جأش وقسوة، خاصة بوجه تلك الكلاب التي كان يطاردها بلا توقف حتى تخرج من حدود الحي، وأحياناً يتبعها لأبعد من ذلك لدرجة أني صرت في بعض الأوقات أخشى عليها منه.

لم يكن شريراً، لكنه استغل طول قامته وضخامته اللذين ورثهما عن أبيه وأجداده لصد أي اعتداء، وكان في أكثر من موقف شجاعاً لا يتردد في مقارعة الأطفال الأكبر سناً وحجماً، ولم أكن أنا الضعيف وهزيل البنية لأتخلى عنه وعن حمايته ببساطة.

يعم الفراغ رغم كثافة الصور المتقاذفة في رأسي هناك شيء ناقص. أرى نفسي في حالة هرب دائم من والدي. كانت تلك مرحلة مراهقة أرتق بها قصاصات شخصيتي المحطمة.

هو الآخر لم يكن على سجيته منذ بدء زيارة خالي له، حيث كانا يخرجان على مدى فترات متباعدة لممارسة هواية الصيد، ولم أعهد أبي في عودته حينها إلا خالي الوفاض.

أظن أنني كنت طريدته على مدى سنوات، كل ذلك الصفع الجسدي والنفسي والمطاردة لم يأت عن عبث.

"لو استثمر شغفه في العنف حينها في تقوية عودي؛ لصرت منيعاً ضد كل الألم، ضد كل الخوف!!"

أعتقد أن للمجلد أثره الشديد. عهدته قبلها رغم شحاحة الذكريات طيب الخلق، أنيس المجلس، بهي الطلعة التي جرب إخفاءها أحياناً تحت خشونة ملامحه. لا أعلم متى وأين تلقفه، لكنني أعلم جيداً أن حياتنا انقلبت بعده زاد بطشه من

رداءة الوقت الذي حييته رفقة أمي معه، لم نسلم من جحوده المفاجئ ولا من سوداوية أحكامه.

إحدى المرات خرجت للعب رفقة خالد، وفي الطريق واجهني أحد تلك الكلاب اللعينة. كان كلباً أسود ضخماً. طاردني حتى المنزل وأوصالي ترتعد فزعاً من أنيابه الحادة الطويلة، ولم يكن شعور الخوف يذكر مقارنة بما واجهته حين وصولي لعتبة الباب، حيث خرج أبي على صوت صراخي.

أتهرب من كلب أيها الجبان؟!

صرخ بوجهي أشد من نباح ذلك الكلب الذي أرعبه الصوت هو الآخر، فطوى ذيله بين أقدامه وسارع للنجاة بنفسه. لم أمتلك ذيلاً، إلا أن الخوف الذي قصف بركبتي وبأنفاسي طوى الكثير من الصور البشعة في ذاكرتي، والتي لم أستطع النجاة منها في تلك الساعة.

استطعت على مدى سنين طويلة احتمال الألم الجسدي، لكن الألم النفسي ظل كالخيال المرافق لهويتي، فالكيان الأسود الذي نما داخل أبي، ورثته

لاحقاً بعد أن فرغت كل سبل النجاة من قبضته. لا أعلم حتى اللحظة كيف تم ذلك مجرد نطقي لذلك العنوان القديم "سيكوفي" كان كافياً لينقل ظلام ذلك الكيان إلي.

ربما تهيأت ظروف معينة أيضاً أدت لتقمصي الشر، على رأسها الحقد الذي تراكم على مدى سنوات عدة.

- أحضر مصباحاً جديداً، لا تتأخر أنا بانتظارك.

قاطع تخبط أفكاري صوت طلال الذي فتح الباب وتنبه لعتمة الغرفة، ثم أرسل خلف أحدهم لإصلاح العطل، بعد أن قام بإغلاق الباب مجدداً للانتظار في الخارج.

- ألديك ولاعة؟

هناك شخص آخر، لقد أشعل له سيجارته وانطلق في سبيله وصلت رائحة التبغ إلى الداخل لتمتزج بعفونة المكان، مما ضيق صدري فأخذت بالسعال قليلاً حتى وصل الحارس الثاني.

- لم تأخرت؟

- أوقفني الدكتور أدريان للسؤال عن هذا الوغد.

- هل أخبرك بقدومه إلى هنا؟

- لا لا، كان على عجلة من أمره كالعادة، ويهم بالمغادرة.

- إنه يعمل كالساعة، وصاحب همة ومسؤولية بارك الله به

أنهى طلال سيجارته ومدح أدريان اللعين، ثم ولج إلى الغرفة حيث قام بإشعال ضوء جهازه النقال، وأحضر كرسياً خشبياً قديماً، ووقف فوقه وقام بتغيير المصباح التالف.

وقف الحارس الآخر بجانبه وهو يرصد تحركاتي، حيث جلست أتابع ما يفعلانه بحذر واسع.

اشتعل الضوء في الغرفة. كان أبيض ساطعاً كشف كل ما خفي علي، حيث يوجد في ذاك الركن الجانبي أيضاً طاولة صغيرة وبعض الأوراق وأقلام التلوين على ما أظن.

- أمسك.

وجهي بين قدمي متظاهراً بالخوف.

- لا أستطيع تصديقك، كل هذا الخوف ما هو إلا رياء.

قال المرافق الآخر وهو يرفع قدمه عالياً في الجو، قبل أن ينزلها بقوة كبيرة على بطني جعلتني أتلوى من الألم مثل ثعبان سام، وأتقلب يميناً وشمالاً بلا صوت.

أحاول لدغ نفسي لأخفف معاناتي، فكان صوتي مجرد أنين عميق لا أريد إخراجه، قررت تلك اللحظة حين لم أملك الجرأة لإنهاء عذابي أن أظل الضحية ولو مؤقتاً، ريثما تخف مراقبتي فأنتهز الفرصة للهرب مجدداً. المرة القادمة سأمسك نفسي قدر الإمكان وأحاول الفرار دون التورط بالدم.

استمر الحارس بكامل حقده في الركل حتى نفدت طاقته وطاقتي، دون أن يبادر طلال إلى إيقافه، بل وقف بلا حراك يشاهد انتقام زميله الجنوني الذي انتهى أخيراً بجعلي أتفل الدم من فمي وأنفي وأغرق أرضية الغرفة.

- هيا غادر قبل أن يأتي الطبيب أحمد.

أعطى طلال المصباح القديم لزميله ونزل عن الكرسي ثم توجه نحوي حيث انزويت على نفسي، وأخفيت أخذني الدوار الحاصل في رأسي والنار التي تمزق بطني بعيداً عن حديثهما، فقد كان هذا الإحساس مشتركاً مع الماضي، عندما قام أبي ذات يوم حار بربطي على جذع شجرة نخيل في فناء منزلنا، ثم شد الحبل على بطني بكل قوته، عقاباً لي على دخولي مكتبه. كنت أبلغ حينها من العمر 9 سنوات، وتقريباً يمكنني تذكر نصفها الذي كان عبارة عن مواسم قاحلة من العطش والضرب والسجن.

لم أستطع مواجهة همجيته في التربية، لذا كانت محاولتي التالية للانتقام تقتصر على بعض صغار القطط المولودة حديثاً، حيث فعلت الشيء ذاته معها لأنعم بإحساسه وجبروته ووحشيته.

وصلت إلى سن المراهقة وأنا مشتت الذهن، أكتم الشر داخلي حتى يتسنى لي صقل وتقوية جسدي؛ لأتمكن لاحقاً من رد الصاع بكل ما أوتيت من قلب أسود و ضمير ميت.

ظل الألم شرساً يهاجمني ويقطع أمعائي، حتى عاد طلال مجدداً وكان هذه المرة بمفرده. لقد جاء بكأس بلاستيكي من الماء، مع قطعة من الخبز، وضعهما قربي ثم غادر من حيث أتى لم يبال بنزيفي ولا بألمي وحاجتي للاستطباب.

يمكن أن يكون مجرد امتحان يجب اجتيازه وربما فقط تركت هنا لأسقط وأنهار تحت ضغط القتل والتهديد، وأعترف أخيراً بجنوني.

- "لن أفعلها ما حييت."

النزيف يرهق جسدي. مللت التخبط في الذكريات دون التحصّل على خاتمة على خيط حقيقة مجرد صفحات موبوءة بالصراخ.

لا أسمع سواي في كم ذاك الجنون حتى اللحظات القليلة التي جربت استذكارها رفقة خالد فيها، لم تكن لتخلو من عنجهية والدي وتنمره المستمر على شكلي، وعلى ضعفي.

- لو أنني أنجبت خروفاً، كنت على الأقل استفدت من لحمه، وبأسوأ الأحوال ربما أصبح كبشاً يتحلى ببعض الرجولة.

تلك واحدة من مجمل العبارات الكثيرة التي طاردني بها، بينما كان أبشع الأوقات حين يلازم المنزل، كنت أصبح فريسة يومه، لا أدري كيف أنجو من براثن غضبه أو حتى سخريته، فأحاول أغلب الوقت التخفي كالعدم، لا وجود لي بالاتفاق مع أمي التي أحياناً لا تجرؤ على إخفائي.

جربت أخذ كأس الماء لأرطب به حلقي، وأغسل الدم النازف على وجهي خانتني يدي في الوصول للماء، لذا كان علي الزحف بصعوبة فائقة، وحرفياً كالفقمة حتى أقترب منه قدر الإمكان. بعد محاولة حثيثة استطعت بالفعل التقاطه و ري الكثبان المتشكلة في أنحاء كياني.

ما أن انتهيت من الشرب حتى فتح الباب ودخل الطبيب رفقة طلال هذا الرجل الأمني الذي أصبح بمثابة حارسه الشخصي.

- ماذا حصل هنا؟!

قال أحمد مستغرباً من الدم المتناثر حولي.

- لا أعلم لقد أحضرت له بعض الطعام والماء وغادرت انظر حتى أنني لم أكبل يديه.

اقترب الطبيب وبدأ بالكشف علي بعد أن طلب من طلال الانتظار في الخارج، الأخير الذي حاول التمنع وعدم الاستجابة في البداية بدافع الحرص والمسؤولية، إلا أن أحمد أصر على مغادرته.

رفع عن بطني وظهري واكتشف حجم الأذى الحاصل لي، كنت أتابع نظراته الغاضبة، فرغم كل ما حصل ما زال مؤمناً بوجود خطب ما، ويريد اتباع غريزته الإنسانية في مداواة مريضه من خلال إعطائي الأمان والحرية للتصرف على سجيتي، ثم التوغل داخل عقلي واكتشاف خباياه لن أصدق دوافعه، فأنا بالنسبة له ولغيره نموذج للدراسة، ما أن يفرغوا مني حتى أصبح في القائمة المهملة، وبحساب النتائج سأصل مع أحمد في النهاية إلى طريق مسدود، لن يتحصل به على معلومة واحدة تفيد بحثه وترفع تقييمه في سجلات هذا المسلخ.

- من فعل هذا بك؟!

يحاول عبثاً افتكاك الكلمات وقراءة تعابير وجهي

الشاردة، أعلم جيداً أنني ما أن أتورط في الحديث حتى أفتح على نفسي باباً لن يغلق بسهولة. كلي

آذان صاغية، لا أعلم ما جرى مع الممرض المرافق لك، لكنني أعلم جيداً أخلاقه الرثة وكلماته المستفزة القاسية، ولو كنت مكانك لفعلت أكثر من ذلك.

لم تظهر عليه علامة واحدة تدل على التوتر هذه المرة، بل كان يتحدث حرفياً بلغة المستشار النفسي لجعلي أمسك دفة الحديث، ويخفف عني كما يظن ألماً أحبسه في قلبي وندماً كبيراً لما فعلت. لقد شوه تاريخ ذلك الممرض دون أي تردد على أمل أن أفتح له المجال ليستدل على الحقيقة التي أنا نفسي أجهلها حتى الآن.

تابع تنظيف الدماء بعد إتمام الفحوصات العامة المعتادة، ثم انتشل من جيبه تلك الحبوب اللعينة.

- "لا يمكن أن أوقفه، لكني يجب علي التخلص منها"

- طلال تعال.

أراد منه القدوم لمساعدته على إعطائي الدواء، لكنني فاجأته باستجابتي لتناول الحبوب بعد أن فتحت فمي وحدي.

- هذا أمر جيد.

قال طلال متبسماً وهو يتابع رضا الطبيب عن تقدم العلاج، حتى أحمد نفسه لم يحاول إظهار غبطته، إلا أنني شعرت بانتعاش تنفسه وارتفاع نبضات قلبه، لا أعلم أيضاً كيف لكنه شعور مميز بالتأكيد.

- لا تقيده راقبه فقط، ولكن كن حذراً قدر الإمكان.

- لا تخش يا دكتور أعلم نوعية هؤلاء المرضى، وأجيد التعامل معهم جيداً.

غادر الاثنان الغرفة، حيث كنت على أحر من الجمر للبقاء وحيداً، فما أن أغلق الباب وابتعدا حتى وضعت أصابعي داخل حلقي الإجباري على التقيؤ وإخراج الجرعة المخدرة قبل أن تتحلل وتأخذ مفعولها داخل دمي.

لم تنجح أول محاولتين فالأمر ليس هيئاً بالطبع، إلا أن إصراري على إخراج الحبوب خفف وطأة وصعوبة المسألة، فنجحت في النهاية في تقيؤ كل ما يوجد في معدتي على الأرضية، ثم وضعت الإسفنجة فوق كل ذلك حتى لا أكشف.

وبما أن الجو أصبح هادئاً، قررت النهوض لتقصي تفاصيل المكان حيث الطاولة الصغيرة في الزاوية المجاورة، والتي ترك عليها بعض الأوراق وأقلام التلوين الشمعية المكسرة، مع بعض الخطوط والرسومات التي نقشت على الطاولة نفسها وعلى عدة أوراق أخرى.

لم يكن هيناً الوصول للزاوية رغم قربها، حيث لا تتجاوز مساحة هذا السجن المترين في العرض وكذلك في الطول، لكن إصراري الشديد على التقاط نظرة ولو خاطفة على ما تم رسمه زاد من حماسي، وكوني منهكاً مما ألحق بي صرت أحبو كالرضيع رويداً رويداً حتى بلغت تلك الطاولة.

من رسم تلك الخطوط شخص لا علاقة له بالفن، كان يمضي وقته في عمل شروخ في الأوراق المرتمية

هنا وهناك، وعلى مساحة الطاولة. كما أن جنونه بلغ الحد الأعظمي، حيث قام بقضم بعض أقلام التلوين، التي لا تزال آثار أسنانه محفورة عليها مثل القطع الأثرية القديمة. لا أعلم مصيره ولا يهمني بطبيعة الحال أيضاً.

لست أفضل منه بالتحكم بالقلم ونقش فني الخاص، إلا أنني حاولت تسلية الفراغ الحاصل في خضم هذا الوقت الميت، فأمسكت أحد تلك الأقلام وباشرت برسم قلب غاضب.

لم يكن هيناً اختيار الرسائل المبطنة التي أريد إخراجها للعالم. على أحداً ما يفهم كم معاناتي الكبيرة فيحاول نجدتي من القضبان الحادة لهذا المكان.

هنا حيث يمكن أن يلتهمني النسيان بطريقة أبشع من عضة كلب بري متوحش مع اتساع العزلة. أخذت لوناً أسود من المجموعة، وبدأت بتوجيهه على ورقة بيضاء لم يلوث حقيقتها إلا جثة فراشة صغيرة سجنت نفسها عن طريق الخطأ بعد أن ضلت طريقها إلى الخارج مثلي، فقررت صنع

عالمها الخاص، والتنازل عن حقها بالخروج، وكانت ذات ليلة تمني النفس بالرقص على إيقاع النسيم العابر أسفل الباب، مع تواتر المصباح القديم الأشبه بحفلة صاخبة.

للأسف قادها حظها العاثر لنسيان جحيم من قرر أن يرى من السجن نهايته، ويقتل أي حياة أخرى تدب داخل هذه الجدران العفنة، ثم وعلى حين غرة رفع يده كمقصلة ثم أنزلها بكامل قوته على الورقة، ليسحق مع رقصتها الأخيرة أنسها وسلامها.

تتشابه قصتها مع حكايتي، أو ربما صرت أسقط تلك المشاهد عن سابق قصد في رأسي؛ لأواسي ضعفي وانكفاء قوتي وتحجيم جحيمي المنتظر. تتعدد الرؤى وما زالت فأختار من بينها ما يناسب حجم خلوتي.

لن أعد الأيام على أمل أن يفرج عني وأنطلق حراً، هذا الحلم ضرب من الجنون هم يعلمون كما أعلم حجم الضرر الذي تسببت به ولن أفلت من عقاب قادم لا محالة، فشغف الطبيب في علاج حالتي

وإثبات كذبة مرضي سيعلقني مباشرةً على حبل المشنقة، وربما أبشع.

لو كان هنا خالد لأنقذني!

لكن أين هو لا أعلم مصيره تخونني هشاشة الماضي فلا أرى سوى وجهه الأسمر الصلب، وهو يزأر مثل أسدٍ هائج في وجه من تساوره نفسه بأذيتي.

الوحيد الذي أظنه كان يتمنع عن مواجهته هو أبي، حيث وفي أكثر من مرة التقت عيناي بعينيه وهو يرقبه يقوم بتأنيبي أو بضربي، فكانت نظراته تقدح غضباً من مسافة لا بأس بها، لذا لو تواجه الاثنان لدارت معركة وحشية لن تنتهي بسلام، وقد تؤدي إلى موتهما معاً. هكذا كانت ثقتي بخالد، ومعرفتي الأكيدة بسوداوية خصال والدي المجبول من الشر والمفطور على الشر.

- "سيكوفي."

أحك رأسي بينما أجرب رسم خريطة نجاتي، لكن العنوان القديم يعود ليتصدر اللحظة، يعود مثل علقة تمتص وقتي ودمي وطاقتي كلما تكررت

حروفه مررت بشعورين متناقضين واحد يوهن جسدي كأنه يعتاش على خلاياه المتهالكة أصلاً، وآخر يدفعني لمنطقة محظورة على أي بشري، حيث تصبح الغريزة هي أساس كل شيء، معها يسيل لعابي على رائحة الجثث والدماء والحقد على صدى الخوف والأفكار القاتلة والصراخ.

لا يمكن لتلك الأحاسيس التوافق على مسار واحد، بل لكل منها طريقته الخاصة بالتعبير. أغلب الاعتقاد أن الموقف يحدد قوة كل نقيض بينهما، فلا توافق يجمعهما إلا على استنزاف روحي وفكري وما بقي من قدرتي على النضال.

كنت أدخر يدي لنقش بعض الصور الجميلة الباقية في ذهني، فتفوح الروائح اللاذعة لأشجار الليمون، التي تختلط مع مظهر سعف النخيل المترامي في حديقة المستشفى، وأراني بالفعل على كرسيي النقال أنظر إلى العصافير المتقافزة حولي لا يوجد الكثير من الممرضين حول العدد الجيد للمرضى المنتشرين في كل مكان على المقاعد الخشبية البيضاء، وعلى العشب الأخضر الكثيف الرطب.

أشعر بتلك الأنسام الرقيقة التي تدغدغ جلدي. أموج بخيالي معها مثلما يتحرك شعري الخفيف، الممرض قربي ينقر على جهازه المحمول، والطقس هادئ للغاية يبعث على الارتياح. لكن المشكلة في كل ما يحصل أنني أكاد أعترف بحقيقة هذه الذكرى. ليست مجرد سراب فقد حفظت تفاصيل تلك الجلسة بشكل جلي وواضح، ولو أترك لفكري العنان في لملمة شتاتي لاستدللت فعلاً لكل الأيام التي قضيتها خارجاً.

- "كنت هناك بالفعل!!"

محيت تلك المشاهد من رأسي، وكأن أحدهم أراد إتلاف أجزاء معينة من الفيلم الذي أحياه. ربما كنت أنا نفسي قررت قصداً سجن التفاصيل التي توحي باللطف والجمال؛ حتى لا يبان ضعفي في مكان توقعت أنه من الأفضل فيه أن أكون الأجدر بالبقاء. الأكثر تحملاً للتشوه الذي يمكن ممارسته على حياتي كي أنسى في متاهة جدران هذا السجن المقيت.

تتعرق أصابعي بينما لا أزال أرسم وأخط الحروف والرموز، لم أفهم ماهيتها في البداية لكنني استخدمت عدة ألوان لنقش كل حرف منها، وكأنني أتقصد صنع شيء ما من مخيلتي، ولا أدرك حقيقة معناه. إلى أن وصلت إلى آخر رسم وكان قد شكل بطريقة هندسية أجهلها، وكان يتكون من خط أزرق غامق، تلاه رسم هندسي غريب باللون البرتقالي، ليتبعه قوش أحمر قوي، لأكرر بعدها ذلك النقش البرتقالي، الذي ما أن انتهيت منه حتى خرجت الكلمة غصباً عني:

- جنان.

عم هدوء كبير. صفحات ذاك المجلد أراها الآن بأم عيني. أعيد فتحه في اللحظة التي راحت تتقلب فيها الصفحات من نهايته حتى البداية، وهي تنقش رموزاً أصبحت مألوفة للغاية، حتى وصلت إلى الصفحة الأولى التي نقشت "سيكوفي."

- "نعم. سيكوفي، أذكر كل شيء الآن".

طنين حاد يدور في رأسي. ألم حل بجسدي ثم أخذ يشتد حتى وصل لدرجة شعرت معها أن أضلاعي

عضلاتي، حتى أمعائي تتحرك من مكانها، كأن كل جزء مني يُعاد تشكيله يعاد حياكة جلدي وشراييني ووجهي. لم أعد مسيطراً على كياني بعد عدة دقائق من الصراع مع الوهم والواقع.

يتجلى كل شيء أمامي، كأنها غيمة سوداء انقشعت لتظهر خلفها حقيقة ما حصل، وتاريخ قديم يعاد سرد تفاصيله بكامل خدوشه بحسرته العالقة في حلقي كالأشواك، ويضنيني الحنين لتفاصيل جميلة رغم ندرتها من طفولتي القصيرة، ثم يخف صداعي المترافق بأنسام تلك الأيام. أرى نفسي مجدداً هناك. في المكتب. أقلب صفحات المجلد وطاقة هائلة تتسرب داخلي.

تيقنت تماماً من أنها لم تكن المرة الأولى، لقد أعدت الكرة مرات ومرات كنت أتجرع نشاطي وقوتي من هذا الكتاب الرائع.

لم أعد أشعر بالضعف حتى أمامه! نعم كان يعتصر وجهه الأسمر العريض فيصبح كامداً ومقيتاً، لكنه دون أن يجفل لي رمش. رغم هجومه العنيف

وصفعاته الجنونية، والتي يصل أحياناً فيها لحد اللكم أو الرفس.

لم أكن لألفظ حرفاً. كنت أستقبل كل ذلك الأذى بهدوء مطلق، وعلى العكس شعرت أنني أستمد طاقة الشر تلك كلها، أتشرب داءها كغذاء شبه يومي، إلى أن انتهى الحال بأبي بلا حول ولا قوة، وكأنني امتصصت شره وسواده كله، ليصبح لاحقاً ودوداً وليناً بشكل فاجأ حتى أمي في بعض الأوقات.

للشر رتابته. لا يمكن أن يُخلق من عدم. لو أنني رفضته لما تغلغل في داخلي، لما دغدغ الوحش الصغير الناعس في صدري.

كنت بحاجته وهو أيضاً بحاجتي. رتب معي موعداً لاكتشاف مكامن الضعف والقوة، والثأر ممن يداوم على اغتصاب الحياة بكامل رونقها خيرها وشرها اللذين يحيكان شكلها.

لا أحد يقترب من الغرفة. ذهني مفعم بالفضول واكتشاف المزيد، لكن الصداع المتواتر يقطع الطريق علي لفتح الأبواب المغلقة على لحظات تنتظر الخروج للنور. ربما كان أثر المخدر السابق.

- يجب تقيؤ كل تلك الحبات اللعينة.

قلت ونهضت على قدمي بكل رشاقة. أتحسس جسدي قليلاً وأرى بعض العضلات التي زاد حجمها رغم هزالي الحاد، لا أعلم كيف لكن بالتأكيد هو أمر جيد، كما أن الحيوية والنشاط المتغلغلين في كل جزء صغير مني يكادان يجعلانني أركض على جدران الغرفة الضيقة ثم أحلق حول الضوء مثل يعسوب رشيق وسريع.

تلك الطاقة تعيدني إلى الوراء، إلى شغف اكتشافها. الصور مشوشة لكن بالتأكيد ستتضح في قادم الأيام.

- "علي الآن الالتزام بخطتي والاستمرار في ادعاء المرض".

أقول بينما أمضي في التماس تلك الخطوط الملونة المتشابكة والمتكدسة كجبل من الإشارات والكلمات والتي يمكن استخراج الكثير من المعاني منها الكثير من الجمال اتخذ مكانه الخاص هنا، كأن القدر خطط لهذا اللقاء، أو ربما قوة أخرى،

يمكن أن تكون سيكوفي ذاتها هذه اللغة بمفرداتها الغريبة المميزة.

- نعم، سألتقي بك بعد 5 دقائق.

كان صوت الطبيب أحمد لا يوجد صوت آخر في الردهة لذا أعتقد أنه يكلم أحداً ما على هاتفه. لذا تراجعت للخلف بكل هدوء واتخذت وضعية الغارق في النوم.

حان وقت العشاء، استيقظ.

صدح صوت طلال الذي جاء خلسة خلفه، ثم بدأ بركل فخذي بطرف قدمه كي أصحو، فحاولت تجريب التخفي تحت رداء النعاس.

لكن إصراره الكبير على إيقاظي ودوس قدمي وبطني بقوة أجبرني على إعادة التفكير في الخطة، يجب التوافق مع الحالة الراهنة حتى يتيسر لي التخطيط بشكل أكثر حيطة.

لم يكن الطبيب على رضاً بما يقوم به طلال، كنت أسمع تنهيدة صدره الغليظة من تصرفات الحارس لكنه مجبر بطريقة ما على الانصياع، ربما حتى أظل حذراً من كل تصرفاتي في رسالة مبطنة عن هول

القسوة التي سأقابلها إذا ما تجرأت على التصرف برعونة.

- افتح عينيك لن أقضي اليوم في انتظارك.

- إنه يستيقظ اهدأ.

قال أحمد وهو يقوم كالعادة ببعض فحوصاته المملة، لا أعلم جدوى كل تلك الإجراءات لكنني أمتثل لها مجبراً.

- يجب تغيير ثيابه رائحته أشبه بالجثة.

اقترب مني طلال متأففاً من رائحة ثيابي القذرة، ثم ساعد الطبيب على إطعامي صحناً من حساء العدس، بعد أن تحقق من صحوتي، وبالمقابل لم أمانع بعض الطعام الذي سيزيد من طاقتي على التحمل والنجاة.

ما أن انتهى الاثنان من إطعامي، تراجع طلال للخلف وهو يتمعن بي، ثم رأيت نظرات عينيه تتجه للطاولة المجاورة.

- سيكتشف سري الصغير

خطر في ذهني أنه سيذهب لاكتشاف ما قمت برسمه على الأقل سيعلم أنني أستطيع النهوض والتجول في المكان، وهذه الحقيقة ستبدد خططي خاصة بما أنه يعتقد أنني تحت جرعة قوية للمخدر.

أخذت بالتحرك يمنة ويساراً كأنني أصاب باختلاج ما وفي اللحظة ذاتها التي شعرت أنه سيقترب فيها من الأوراق، وبالفعل نجحت خطتي في تشتيته، حيث عاد المحاولة تثبيتي في المكان.

- هل هناك خطب ما؟

- لا أعلم أبقه مثبتاً سأقوم بإعطائه حقنة مهدئة.

لم ينته أحمد من كلامه حتى هدأت فوراً، لا يمكنني السماح له بإعطائي الحقنة، وبالفعل لم يكد يمد يده إلى جيبه حتى تراجع، ثم قام بإخراج الحبوب ذواتها مع زجاجة ماء صغيرة من جيبه الآخر.

نجحت الخطة في آخر لحظة، حتى طلال الذي بدا أنه سئم من حالتي ترك الطبيب ليعطيني الحبوب بمفرده ثم وقف على الباب تحسباً لأي

طارئ، وأنا بالمقابل فتحت فمي طواعية وتناولت الحبوب، ولم يغادر أحمد حتى تيقن من أنني قمت بابتلاع الجرعة.

خرج الاثنان وأغلقا الباب دون أن يتبادلان أي نوع من الحديث لتحين اللحظة للنهوض وإخراج الدواء من معدتي قبل أن يداهمني الوقت، ونجحت من المحاولة الأولى بالتقيؤ وإفراغ معدتي من الحساء والحبوب.

عاد الوقت ليجري بسلاسة، بينما ركنت ظهري للحائط وأنا ألملم الفوضى الحاصلة في نزيف الذكريات الحاصل منذ ولادتي حتى الآن، وأنا أجس تفاصيل جسدي الجديد.

- أفتقد الخروج إلى الحديقة.

يتمتم فمي تلك الحروف، وقد بث على ثقة بأنني كنت زائراً مداوماً على التجول مع ذاك السمين، لكن مفعول السم الذي كنت أتجرعه غصباً عني حال دون تذكري لتلك الأوقات. صارت الصور تسبح أمامي في مشهد يوحي بالغبطة لما يحتويه الهواء العليل في الخارج.

- كان ذنبه!

ربما لم أتقصد قتله بالفعل، لكن مشاركته اللعينة في منعي من الحصول على قسط كاف من الذكريات أجبرتني على اتخاذ تلك الخطوة، وحتى الآن لا أعلم لماذا لم يقوموا بالإبلاغ عني.

لقد سحقت وجهه ودماغه بوحشية مفرطة، رغم ذلك لن يشفى غليلي حتى أنتقم من كل من آزر هؤلاء الحمقى!

- أقسم بقوة سيكوفي أن لا رحمة ستلوح في أفقكم، ولا لحظة هدوء ستتسلل إلى لياليكم. سأتبعكم في الظلام، حليفا لكوابيسكم، وسأغمركم بغياب الراحة مذيقاً إياكم الألم السحيق خرجت الكلمات كأنني على دراية تامة بها، كل حرف منها يشكل قطعة لحم مني، من عظامي ومن وعيي المطلق.

هذا الوعي الذي أعادني لأول جريمة ارتكبتها في تاريخي، وفي رفة جفن رأيت جاسم الصغير الواثق من نفسه هناك على قارعة الطريق يتمتم بكلمات سيكوفي، بينما يواجه أحد تلك الكلاب المسعورة.

لم يبد أي ردة فعل تجاه أنيابه الضخمة ولعابه الذي يسيل من هول شراسته، وهو ينبح وينتظر اللحظة التي أفر بها من أمامه ليستمتع في اللحاق بي، ويشبع شهوته الدائمة لإخافتي.

إلا أنني وقفت قبالته، وأنا أتلفظ برموز غامضة. في البداية جعلته يهدأ، لكن الكلمات التي صارت تنطلق عبر شفتي بعدها جعلته يرتجف في مكانه، ثم حاول التراجع والهروب لكنني دخلت إلى رأسه وأجبرته على الثبات بعد أن أذقته بعض ويلات ما كان يفعل بي حيث جعلته يتخيل وحوشاً عملاقة حوله قادمة لافتراسه ولشدة انزعاجي من صوته أقفلت فمه، فصار يعتصر من شدة الفزع حتى بال على نفسه لتلحقه بعدها عيناه وهما تذرفان الدم والدمع.

انتقل ذلك الخوف إلي كوجبة دسمة، كنت أستمتع بكل ثانية أشوه بها كيانه، انتقمت منه لكل مرة طاردني هو وتلك الكلاب الشاردة فيها، وحين وصلت لحالة من الإشباع والرضا أطلقته باتجاه إحدى السيارات المسرعة العابرة، حيث فوجئ السائق الذي كادت عيناه أن تخرجا من محجريهما

بقفزه تحت العجلات، قبل أن يركن جانباً وهو يصلي لعدم انقلاب وتدهور سيارته التي كانت تحمل أيضاً زوجته وطفلته.

كان لرائحة اللحم المهروس على الإسفلت المختلط بمزيج بقايا الإطارات رونق آخر ممتع، لكنني فضلت الابتعاد عن الشارع بعد أن تجمع بعض الناس للاطمئنان على حالة السائق وعائلته. أذكر أيضاً خالد صديقي المقرب والذي دخل إحدى المرات في سجال مع مجموعة من الأولاد الأكبر سناً، من أجل زعامة أحد الشوارع، والتي كان البعض في تلك المرحلة العمرية يأخذونها على محمل الجد، حيث يقطعون الطريق على الأولاد الأضعف، فإما يجبرونهم على تشغيلهم كخدم تحت إمرتهم لتسليتهم وابتزازهم أو يبقونهم أسرى حرب من نسج خيالهم، فلا يطلقون سراحهم حتى يملوا من التنكيل بهم.

إذا فإن خالد بكل طباعه الحادة أبي الخضوع لتلك العصابة، وانطلق في أكثر من مرة في قتالات جماعية خرج منها أغلب الأحيان منتصراً، لكن

المضايقات المستمرة لتلك المجموعة غدت أبشع من جحيم الكلاب المتوحشة.

في إحدى المرات وبينما كنا على ركن الشارع المطل على منزلي، حيث لم أعد أبالي وقوف أبي خارج المنزل لتدخين بعض السجائر، وهو يتجنب النظر باتجاهي، قال لي خالد:

- ربما علينا الاستعانة ببعض الأولاد لعمل عصابتنا الخاصة، ثم القضاء على هؤلاء الأوغاد.

لا يمكن إنكار أنني صعقت لوهلة من طلبه. ربما ضحكت وقتها لطالما كان بالنسبة لي الحارس الشخصي الذي يمكن الاعتماد عليه، كي يستطيع البوح بخوفه، أو ربما حذره من التورط في أمر أكبر منه.

- هل أنت جاد؟!

ابتسمت وأنا أستفسر عن رغبته تلك، لكنه أقنعني بما يجول بخاطره فعلاً حين قال:

- تجتاحني لحظات لا أعي بها ما أفعل، وأفقد السيطرة على نفسي، ثم إنني أخشى أن أقوم بإنهاء حياة أحدهم دون أن أشعر حقاً.

ربت على كتفه وقد اختفت بسمتي، في إشارة لتضامني معه ومع ما يشعر. أعلم حقيقة ذلك الإحساس، لكنني حينها لم أتمكن من الاعتراف له بما أقدر على فعله، لذا قررت أن أساعده دون أن يدرك ذلك.

- لا تقلق ستكون الأمور على خير، لا داعي لنصبح عصابة.

عدت للابتسام وأنا أطمئن قلبه، بينما نظر إلي نظرة استغراب وهو يكاد ينفجر ضحكاً لمعرفته المسبقة بضعف حيلتي، وبحقيقة هروبي الدائم من المواجهة.

عدت لأحيا داخل متاهة تلك الأيام، وأنا أنقب في عباءة الوقت المنصرم عن كل ما حجب عني أيضاً. حيث لم تمض عدة أيام على العهد الذي قطعته لخالد، الأخير الذي لم يأخذ كلامي على محمل الجد، ثم وفي قيظ النهار خرجت لتقصي أخبار المجموعة المعتدية والتي كانت قد اتخذت مقرها في فيء أسفل بعض أشجار النخيل، هناك في الحديقة المحاذية لتقاطع حينا القديم، حيث

شيدوا من السعف سقفاً وجدراناً، بينما وضعوا بعض الحجار المرصوفة كمقاعد، وفي المنتصف قاموا بدحرجة حجرة كبيرة لتصبح مثل طاولة لاجتماعاتهم الهامة.

لقد حصنوا أنفسهم جيداً وكأنهم يعدون العدة للهجوم على الأحياء المجاورة والسيطرة عليها. حيث تظهر لي بعد أن تحصنت خلف أوراق إحدى أشجار الليمون المطلة عليهم، بعض العيدان الطويلة والغليظة التي ستستخدم كأسلحة بيضاء في المعارك القادمة.

- ربما يعلمون بقدومي!

كان هذا أحد الاحتمالات التي أقنعت نفسي بتصديقها. هذا يحفز قابليتي للانتقام، ويؤجج النار المستعرة في عيني.

لم تمض دقائق حتى تقابلت نظراتي مع نظرات أحد أفراد العصابة الذي شك بوجود أمر مريب خلف شجرة الليمون. لم يبلغ رفاقه حيث انطلق لتقصي الأمر في دورية منفردة.

ما أن وصل إلي حتى صعق بوجودي. كنت ثابتاً أمامه لم أحرك ساكناً، مما أثار الريبة في صدره. لا أنكر أنه حاول أن يلفت الأنظار لوجودي حتى يتم الإمساك بي لكنه لم يستطع القيام بأي حركة.

ما أن تقابلت نظراتنا حتى اقتحمت خلده، وأصبح كالخاتم في إصبعي ومثل ذلك الكلب دب الرعب داخل قلبه، حيث استمعت لحسيس رشقات نبضه المرتفعة، واشتممت رائحة تعرقه الشديد تحت ثوبه الأسود.

- كنت بانتظارك أيها الخسيس.

قلت له بعد أن وجهته للعودة للمقر، حيث سار في خط متعرج وهو يحاول الإفلات من قبضتي، وإخراج الأفكار القاتلة التي أبثها في رأسه.

كان المشهد مثيراً حين وصل إلى المجموعة مع نظرات الاستغراب التي علت ملامح الجميع. كان يتمايل مثل دمية بين يدي، وأفكاره الرافضة للانصياع لأوامري حاولت قدر الإمكان التمنع عن الامتثال لطلبي.

بعد عدة ثوان من وقوفه، أراد أحدهم معرفة حالته بعد أن انزعج من تصرفه المريب. إلا أنه لم يتمكن من النطق بكلمة، فقد دفعت صديقه لمهاجمته من اللحظة الأولى التي وقف فيها قبالته.

علت الصرخات والمناشدات للخلاص، وقد اجتمع الجميع لإزاحة الشخص الذي كنت أتحكم بتصرفاته الشرسة بشكل تام، لكن أسنانه العالقة في بلعوم رفيقه اشتدت كثيراً حتى سالت الدماء، ولم يكف عن القضم حتى انتشل قطعةً كبيرةً من اللحم، تركت رفيقه مضرجاً بالنزيف والأنفاس المتقطعة الأخيرة.

لم تنفع الضربات الموجعة لباقي أفراد المجموعة، على صدر رفيقهم المهاجم وعلى رأسه وكامل جسده، حيث لم يقدر على مقاومة رغبتي الشديدة بالقتل.

كم كان الشعور المرافق قوياً وأنا أستطعم ذلك الخوف المنتشر في قلوبهم جميعاً، فلم يعلموا سبب اقتراف صديقهم لهذا الفعل الشائن.

انتهى كل شيء حينها، مع ارتعاد قلوب أفراد العصابة وتصلب وجوههم. حاول البعض الفرار من مكان الجريمة، بينما شلت أقدام آخرين، وانهار أحدهم من هول المشهد المرعب على الأرض.

أذكر جيداً كيف تشربت كل ذلك الخوف، ثم التفت عائداً إلى المنزل بعد أن جاءت الوفود من أكثر من منزل وهم ينهالون بالنحيب على الضحية، وبالركل والصفع للقاتل الصغير الذي تركته يعود أخيراً ليدرك حقيقة فعلته.

ظلت الأصوات العالية وضجيج الأقدام الراكضة في رأسي حتى وصلت إلى المنزل، حيث قابلني أبي على المدخل ثم التف مسرعاً إلى الداخل ومذعوراً.

كان يعلم حقيقة سيكوفي، فقد قرأت ذاك الخوف في عينه. قرأت أفكاره. كان يلعن الساعة التي وجد بها هذا المجلد اللعين كما أسماه، ورغم امتعاضي من قلة احترامه لقوة هذا الكتاب الرائع، والذي لم يستطع رغم جبروته أن يستخدمه في خدمة شره، إلا أنني لم أعر جبنه الآني أي أهمية، بل دفعته

للهرب لاحقاً من المنزل، وما قصة الحادث الذي اختلقته في رأسي سابقاً إلا تهدئة للنار التي تدفعني لقتله؛ لذا كان الحل الأمثل أن أدفعه للخروج حتى لا ألاحقه.

نعم. كل تلك الذكريات ما هي إلا صور اختلقتها، كان علي التظاهر بأنني الضحية أمام الجميع. فأنا كنت ذاك الطفل الصغير الذي يجب الإشفاق عليه، واحتضان آلامه وانكساراته المتعددة، والذي لم يتبق له سوى أمه التي كانت تجهل الحقيقة.

لم يجرؤ أبي على الإفصاح بما في خلده، بل فضّل أن يتركها عمياء عن حجم الألم الذي كنت سأسببه لها أيضاً.

في اليوم التالي لانفكاك تلك العصابة وتشرذمها قابلت خالد، وللوهلة الأولى رأيت نظرات الاستغراب ذواتها لكنها لم تترافق هذه المرة بأي ضحكة أو حتى ابتسامة خفيفة.

- هل أصبتهم بلعنة ما؟!

قال لي وهو يبحث عن جملة أكثر إيضاحاً ليفسر اندهاشه الكبير.

- يجب علي طلب شيء أفضل في المرة القادمة.

ضحكت وأنا ألفظ تلك الكلمات، في دلالة مني على سخرية واضحة. لذا كان لا بد من طريقة تخفف قلقه.

- هل تصدق أنني رأيت الجريمة بأم عيني؟ حتى أنني استمعت لجدالهم حول تسلم قيادة العصابة

- هل أنت جاد؟!

- نعم نعم أؤكد لك ذلك، لم أذق طعم النوم ليلة البارحة من هول ما جرى.

أعلم جيداً أنه لم يصدق حرفاً مما قلته، فأنا لم أجرؤ على الاقتراب من مناطق سيطرة تلك المجموعة في السابق، لكنه صديقي المقرب الوحيد، تجمعنا العديد من القصص والذكريات ولن أحب خسارته، رغم أنني لم أعد في حاجة لأي خدمات حماية. أصبحت قادراً على رد أي اعتداء دون أن تتلوث يداي.

لم تتوقف الأمور عند هذا الحد، فقد لحقت تلك الواقعة عدة أحداث أخرى، فتحت أمامي وأمام خالد السبل لإزاحة العديد من المنافسين المحتملين على تزعم الحي، كما مهدت الطريق أمامي لكسب ود إحدى فتيات الحي الجميلات والتي أصبحت فيما بعد زوجتي مها. كانت تلك أياماً مظلمة يشوبها الكثير من الغموض، وربما يدفعني الفضول لتقصي وقائعها، إلا أنني أنهكت من كم البحث العميق في خبايا الماضي، وأحتاج قيلولة حقيقية الآن.

أرخيت رأسي على الإسفنجة لأغرق في نوم هادي ربما لم أذق مثله حقاً منذ فترة طويلة، ليمضي الوقت خفيفاً إلى أن حان موعد الجرعة القادمة. أيقظتني دفعة كبيرة من النشاط، قبل دقائق من دخول الطبيب أحمد ومن معه كالعادة، لأمارس اللعبة ذاتها في التخفي خلف ستارة النوم، وادعاء التعب المفرط والغياب عن الواقع.

لم أنه تحفيز المكيدة في ذهني، حتى صدح صوت طلال والحارس الآخر البغيض في الخارج. لقد تقصدا إحداث جلبة أثناء دخولهما في محاولة

لإزعاجي. تلك الثانية تنصت لصدى خطا أحدهم وهو يقترب مني ليمسكني من ياقة قميصي، ثم يسحبني بعنف نحوه ليقوم بتحريري بعدها وترك جسدي ليرتطم بالأرض ثم يطلق قهقهته الصاخبة بعدها.

- لقد سقط مثل روث الحمار.

قالها لينفجر طلال بضحكة ساخرة عالية بعدها.

- ماذا يجري؟!

ولج الطبيب وهو يؤنب الحارسين على فعلتهما.

يجب وضع حد لهذا، لا أحتمل رعونة تصرفاتكما!

أطلقت بعض الأنين في إشارة لتألمي من تلك السقطة. لقد استطعت كسب ثقة أحمد قليلاً، والذي ما زال مصراً على أخلاقياته ومعاييره العالية في ممارسته لمهنته.

خرج الاثنان للانتظار عند الباب دون التفوه بكلمة، بعد أن ترك طلال على الأرض صينية صغيرة تحمل قطعة خبز وبعض قطع الجبنة المغلفة، ليعمل بعدها أحمد على فتح عيني، ثم تحسس

رأسي أن كنت قد أصبت بجرح من أثر الصدمة القوية.

ما زلت مسيطراً على الموقف، لم أقم بأي ردة فعل، ولا أنكر أنني جربت الدخول لعقل هذين المخبولين تلك اللحظة، إلا أنني لم أقدر على ذلك، هناك شيء يغيبني ومن المستحيل أن أفقد تلك القدرة الهائلة على الدمار بهذا الشكل.

- لا يوجد شيء خطير، أمورك بخير.

أكد أحمد وهو يكلم نفسه عن سلامتي، ثم قام بتقريب صينية الطعام وقام بفتح قطعة جبنة وقدمها لي.

- افتح فمك.

لم أتردد مجدداً في الاستجابة. لن أعطيه عذراً ليعيد تشديد قبضته. فأغرق مجدداً في وهم الحقائق، وأعيد الشريط من بدايته. تناولت ثلاث قطع كاملة مع تلك الخبزة اليابسة تقريباً، والتي لا تقدم سوى كعلف للبعير.

كان يجهز حبوب الدواء، وما أن أنهيت اللقمة الأخيرة، حتى ألحقها هي الأخرى بفمي، ثم سحب

من جيبه زجاجة الماء لأشرب بعدها لا يمكن وصف سعادته وهو يعتقد أنه ينجز المستحيل ردة فعله المضحكة جعلتني أشفق عليه.

لم أرد النظر لوجهه أسدلت جفني وتركت أذني تتولى مهمة سبر وجمع تفاصيل صوت أحمد وطلال والآخر أحاول تذكر كل نفس يأخذونه، ستأتي اللحظة السانحة لأذيقهم رشفة من سمهم.

قبل مغادرته رن جهاز الطبيب النقال.

- أجل، أنا في الغرفة تفضلوا بالقدوم.

من نبرة صوته لم يبد متحمساً للقاء. كان لسانه ثقيلاً في التعبير، بينما نشف لعابه، حيث استدار لأخذ زجاجة الماء التي كان قد نسيها خلفه، وفتح الغطاء وشرب القليل منها. لقد استمتعت بكل لحظة من قلقه توتره، انشغاله بثقالة الضيوف القادمين.

لم ينته من الشرب حتى سمع صوت خطوات خفيفة لينسحب لاستقبالهم.

- أهلاً أهلاً.

كان زيف الترحيب المصبوغ بالضحكات السامة واضحاً لي، لكنه استمر في استحضار كل ما في جعبته من رياء، ليظهر حسن التصرف، ثم دخل الجميع إلى مساحتي الخاصة.

هذا هو مجرمنا الصغير، ما الجديد بخصوصه ؟

كان صوته غليظاً خشناً، يبدو أنه صاحب شأن في المكان.

- هناك استجابة كبيرة حالياً في تلقي العلاج، لا يظهر مريضنا أي ردة فعل سلبية.

رد عليه الطبيب أحمد الذي كان مباشراً في إجابته، لذا توقعت أنه يخاطب رئيس المستشفى.

- قريباً سيتم نقله إلى مكان آخر، لذا حاول التفرغ لإنهاء خطتك العلاجية وتقديم تقريرك بأسرع وقت.

- "إلى أين سيتم نقلي؟!"

أربكني صوت آخر همس خلف أذن هذا الرجل المهم كان صوته، إنه أدريان.

- يجب أن نترك القانون يأخذ مجراه!

دون أن يشعر أحد فتحت عيني قليلاً، لأخذ لمحة خاطفة عن تفاصيل سحنته القذرة، محاولاً تهدئة نفسي لئلا يبان علي التوتر. كانت تلك فرصتي التي لن تتكرر لاحقاً، خاصةً إن عقدوا العزم فعلاً على ترحيلي من هنا، حيث ينوي أدريان الخسيس التخلص مني بأي ثمن.

- "يجب عليهم المغادرة".

أعدت رأسي للخلف في إشارة لبدء مفعول المهدئ، حيث تطرق الثلاثة لطرح بعض الاقتراحات التي تفضي جميعها إلى ترحيلي، ولم يكن أمامي سوى الإصغاء والنار تستعر داخل عروقي. أريد اقتلاع قلب أدريان من مكانه وأكله يقشعر جسدي وفوضى الغريزة تحتدم أسفل جلدي، أريد خدشها ليخرج كل هذا الغضب المحتقن لينفجر الظلام ويعلن قيامه من سبات طويل.

كانت خطواتهم الثقيلة البطيئة تنهش قلبي، وأكاد أن أنهض من رمادي المفتعل، ولم أصدق مغادرتهم وإغلاقهم للباب، حتى فتحت صدري

على آخره لأستنشق الهواء. كنت على وشك الاختناق، وبيني وبين ارتكابي لحماقة أخرى عقلة إصبع.

ظل وجهه عالقاً في رأسي وهو يوسوس كالشيطان في رأس الرجل، لكنني تذكرت أن علي تدارك الوقت وبدأت بإخراج الجرعة التي بدا أنني تأثرت قليلاً بمفعولها. لم أستطع البقاء على وضعيتي، لذا نهضت إلى الطاولة مجدداً، ثم جلست قبالتها وباشرت حك الأقلام الملونة بالأوراق، وافتعال رموز على بعضها ما زال يقبع داخل رأسي، فأتمكن عن طريقها من إيجاد بوابة للنجاة من هذا القبر.

- لن أنسى وجهك.

حاولت رسم تفاصيله على الأوراق، بشعره القصير الأسود الذي يغزوه الشيب بعينيه الواسعتين ووجهه الحنطي المكتنز، ما أن انتهيت لم تكن تلك الصورة قريبة من ربع ملامحه حتى، رغم ذلك أمسكت تلك الورقة بألوانها المتعددة وبدأت بشمها ولعقها، قبل أن أنتهي بتمزيقها إرباً.

تملكني الكثير من الصراخ، واشتهيت أن أفجره في أروقة هذا المستشفى، لكن شيئاً أقوى مني دفعني لتحمل هذا الألم هذا الجوع انتصبت على طولي بجسدي الممتلئ بالطاقة، وأخذت بالمشي بسرعة من حائط إلى آخر.

أظافري تتحسس الثقوب وخشونة الإسمنت، وعقلي يأخذني في جولة خارج نطاق المكان، ربما يسعفني الخروج في التحلي ببعض الصبر.

لا أعلم كيف يعيدني الوقت إلى مجموعة من الأحداث التي ترتبط جذرياً بصديقي خالد، كأن كل شيء بدأ وانتهى هناك.

ربما لم ينته فتلك إجابة أخرى للبحث عن حقيقة لن أتوقف عن المضي خلفها، لن أيأس من التوسل للفسحة المعتمة في تاريخي.

أنا مستعد لتقبل كل النتائج التي يمكن أن تقلب حياتي رأساً على عقب. أعلم جيداً أن الأحداث تكررت في مرات عديدة وفي أوقات متفاوتة، يتراءى في ذهني قتلي لأكثر من تسعة أشخاص تم ذكرهم أمامي، وتوصيفهم بألقاب بشعة تدل على مدى

دناءتهم، ومنهم قال لي عنهم خالد نفسه، لكن أعلم أيضاً في قرارة نفسي أنني لم أقف عند ذلك الحد.

صار الموت جزءاً من حياتي، وفي مرحلة ما من مراهقتي أدمنت البحث خلف الأشخاص عن أي سبب يمكن أن أجعله شماعة لإعدامهم.

رأسي ثقيل بعض الشيء، الجرعة نالت مني قليلاً، إلا أنني استمررت في تعقب ماضي الغامض. جلسنا مرةً معاً. أنا وخالد كان يحملق بي متعجباً، قبل أن ينهال علي بغزارة الأسئلة.

- تكثر الأحداث المأسوية هذه الأيام، هل تعلم ما يجري؟

- لا بالتأكيد.

لا أستطيع أن أخبره ببساطة عن حجم قوة سيكوفي، عن كوني المفتعل الأول لتلك الجرائم الحاصلة، لذا اعتقدت أنه من المستحسن تجاهل أسئلته، لكن إصراره العنيد لم يتوقف عن طرح الاستفسارات وتحييد الاحتمالات التي لا يمكن البت بها.

- إن الأغرب في كل ما يجري، أن فئة معينة من الناس إما تختفي لتظهر جثتها بعد فترة، وإما تقتل أمام الملأ.

- ما الغريب في الأمر؟ إنهم أشرار ويستحقون ذلك.

- هل تدرك أنك الوحيد الذي ذكرت أمامه خمسة رجال يسيئون للحي، وجميعهم اختفوا في أسبوع واحد؟!

رفع وجهه المستغرب عني، وهو يرمي نظره بعيداً، بينما تمسكت بإصراري على إنكار ما يحاول إثباته.

- لقد أصبتهم بلعنة قاتلة.

أتذكر جيداً قولي ذلك، قبل أن أهتز من الضحك في محاولة مني لإزاحة الشك من قلبه. هو عالق في معضلة كبيرة، حيث لا يمكن له استيعاب وتصديق قدرتي على قتل نملة. إضافة لكونه لن يتوقع مني أنا الذي فطر على الخوف والتنمر، أن أمتلك لغة قوية مثل سيكوفي، أستطيع بها فعل كل ما يحلو لي.

رغم إلحاحه الشديد حينها ومحاولته نبش كل الوقائع التي تربطني كلياً بما يحصل. لا أذكر أنني اعترفت له ولو بشكل أني عن سري الصغير. تخبو حرارة المشهد الشائك في أثناء اقتحام طلال للغرفة.

- ستوضع قريباً على كرسي الإعدام، استمتع بلحظاتك الأخيرة أيها المجنون.

عاد ليعلن شماتته، وهو يلملم بقايا الطعام والصينية التي نسي أخذها سابقاً، ثم استدار للخروج.

- أنت!!

قلت له بصوت منخفض، لا أدري لم تجرأت على لفظ الكلمة، إلا أنني اندفعت غصباً عني. توقف طلال فجأة ليعود أدراجه إلي وكأنه كان ينتظر أن أفضح كذبة مرضي، مثل الطبيب أحمد.

- هل قمت بمناداتي؟

تفحصت وجهه البارد جيداً قبل أن أسبر أفكاره، ثم التمست قدرة خلقت داخلي جعلتني أحركه

كيفما شئت. لقد وقف أمامي مخموراً ومغيباً عن الواقع وكأنني أصبحت داخل رأسه حقاً.

- "اخرج من الغرفة واترك الباب مفتوحاً"

همست في ذهنه، لينطلق فعلاً نحو الباب، ويسير بعيداً دون إدراك وجهته، بعد أن ترك لي حرية الخروج من الغرفة، ظننتها فرصة سانحة للهروب الآن، لأنهض مأخوذاً بشغف المغادرة وأتسلل للخارج.

كانت الإنارة قوية على طول الممر الذي انتهى بسجني. لا يمكن إنكار خفة جسدي الذي يتطاير فرحاً عبر هذا الرواق، رغم هذا عبرت بحذر واضح حتى وصلت إلى ركن ذي اتجاه واحد نحو اليسار. وكانت هناك طقطقات خفيفة لا أعلم ماهيتها.

ما أن عبر رأسي الزاوية لمسح المكان، حتى صعقني وجود باب كبير بقضبان حديدية، وقف أمامه طلال الذي كان لحد تلك اللحظة غائباً عن الحقيقة، وكان يحاول اجتيازه مثل السائر في نومه، فيتقدم للأمام ليصطدم بالبوابة ويعود للخلف ليكرر فعلته مجدداً،

دون أن يدرك ما هو بصدد القيام به.

- إنه طلال، ماذا يفعل؟

تراجعت للخلف فور سماعي ضوضاء اثنين من الحراس الآخرين قد قدما لتقصي طبيعة الضجيج الحاصل.

لا يمكنني الولوج لرأسه مجدداً وقد اعتراني التوتر قليلاً، فكان من الأفضل العودة لنقطة الصفر كي يتسنى لي التخطيط مرة أخرى بشكل أفضل للهروب.

لم تكن هناك أي نوافذ، ورائحة الرطوبة المنتشرة إشارة لوجودي في قبو المستشفى، وما أن وصلت لمدخل سجني الضيق حتى قفزت على الإسفنجة محاولاً إخفاء أي دليل يقودني إلى التهلكة.

في الخارج كان صخب الرجال يعلو وينخفض، وهناك أقدام تحفر الأرض قادمة نحوي أغمضت عيني تحسباً وحبست أنفاسي لأخفف رشقات قلبي المسرعة.

- "نجحت في الدخول إلى رأسه".

لا يمكن وصف هشاشة شخصه، وأنا أقتحم كيانه الذي حاول تزييف طبائعه أمامي، حين أظهر قوته وتسلطه كغيره.

- "المجد لسيكوفي، الآن وأبداً".

- لقد ترك الغبي الباب مفتوحاً.

- هل جن هو الآخر؟!

لم يكن قد غادر، إنه أدريان ولكنه هذه المرة جاء رفقة سعيد، سمعته يناديه وهو يهرول فزعاً يخشى هروبي.

حدق الاثنان بي وهما يناديان بصوت مرتفع على الحارس ليقوم بجلب مفاتيح الغرفة من طلال، الأخير الذي غرق في متاهة مظلمة لن يعود منها في القريب العاجل. ومن تحت خيال جفني تحملت حفظ كل تفصيل دقيق من ملامحهما الرثة.

- كيف نسينا أمر الجرعة؟ لن يصحو بكل الأحوال قبل ساعات.

ضحك أدريان على ارتباكه وخوفه اللا منطقيين، ثم هم بالرحيل بعد أن وصل الحارس وقام بإطباق الباب.

ظل صدى خطواتهم المبتعدة عالقاً كرائحة الغرفة العفنة، وخيلت لي همسات تخرج من فسوخ الجدران القديمة وتتواتر في أنغامها غفلت عن مجيء هذين الكريهين وانشغلت بالإنصات للكلمات الغائرة المتراشقة حولي، ثم وضعت أذني على أقرب حائط حيث استشعرت برودته في الوقت ذاته الذي ارتفعت فيه وتيرة الجلجلة.

من مخاض الذكريات ولدت في رأسي ظلال متتالية الأحداث مريبة، أعلم أنني لم أحي أي جزئية منها، بل كانت مجرد سراب وحوش تقفز وقتالات خيالية وجيش من الشياطين يطاردني عبر سراديب سحيقة. المجهول، وفي صميم قلبي أعلم أنها مجرد هلوسات.

حتى صوت الخراف ورائحة مزارع الماشية التي لا نهاية لها. كل شيء اختلقته لأفسح المجال للغة سيكوفي لتتملك كل قطرة دماء وماء مني بكلماتها الساحرة الرائعة التي غرست داخلي كل هذه القوة هناك أصوات مألوفة تساعدني على القضاء عليها، تتقلب المشاهد وتحترق أوصالي بنيران خرجت من لأجابه أعتى الشرور.

- "لجنان الفضل بذلك كله!!".

أعترف بفضله، فقد اختارني من بين الجميع ليحارب معي وحشية وظلم من عاثوا بقلبي فساداً وسحقوا طفولتي.

لم أكن سعيداً بما عبر في ذهني، حيث أبعدت وجهي محبطاً من بعض الألم المرافق لما رأيت، وقد بانت آثاره على خدي بدمع دموي مترافق مع غبش أحمر، جعل كل ما أنظر له باللون ذاته.

الغرفة، ظننتها فرصة سانحة للهروب الآن، لأنهض مأخوذاً بشغف المغادرة وأتسلل للخارج.

كانت الإنارة قوية على طول الممر الذي انتهى بسجني. لا يمكن إنكار خفة جسدي الذي يتطاير فرحاً عبر هذا الرواق، رغم هذا عبرت بحذر واضح حتى وصلت إلى ركن ذي اتجاه واحد نحو اليسار. وكانت هناك طقطقات خفيفة لا أعلم ماهيتها.

ما أن عبر رأسي الزاوية لمسح المكان، حتى صعقني وجود باب كبير بقضبان حديدية، وقف أمامه طلال الذي كان لحد تلك اللحظة غائباً عن الحقيقة، وكان يحاول اجتيازه مثل السائر في نومه،

فيتقدم للأمام ليصطدم بالبوابة ويعود للخلف ليكرر فعلته مجدداً، دون أن يدرك ما هو بصدد القيام به.

- إنه طلال، ماذا يفعل؟

تراجعت للخلف فور سماعي ضوضاء اثنين من الحراس الآخرين قد قدما لتقصي طبيعة الضجيج الحاصل. لا يمكنني الولوج لرأسه مجدداً وقد اعتراني وسعيد، حيث زرعت بينهما فتنة ستتكفل بإنهاء حياتهما.

لم يمض وقت طويل على مغادرتهم، لكن على أمل انتظار خبر جديد، كان لا بد من أخذ استراحة قصيرة أرتب فيها القصاصات الناقصة من ماضي المجهول. رافقت اللحظات الفاترة هواجس مثيرة لوقائع مفصلية جلبت لي العار ذات يوم.

- الحياة سيكوفي.

أكرر فضلها في تخفيف ذاك الكدر المطبوع على قلبي فمجرد النبش في بقاياي المحطمة خلفي، والتعايش معها بتلك البساطة، كان كفيلاً بتحويل رأسي لأشلاء.

إذا فقد حال المجلد دون أن ألقي بنفسي نحو التهلكة، حين حجب عني ذاك الوجع المصبوغ برائحة الخديعة ولم أتردد ولو لجزء من الثانية في أن أوليه دفة حياتي، ما أن شعرت بقيمته ودفاعه الشرس عني.

سيكوفي الآخر هو خالد بين صد ورد ومحاولات حثيثة منه لتقفي أثر تلك الجرائم المستعصية على عقله، كان علي اختيار القرار الأنسب. لم يقصر خالد يوماً في مواجهة الخطر لحمايتي، كان شرساً كالوحش وكريماً في صداقته كيف أستطيع ألا أشاركه بعض أسراري، وأطمئن قلبه بأنني قادر على الدفاع عن نفسي أخيراً، وفي الوقت ذاته أخشى انكساره لاكتشافه تلوث يدي بالجريمة.

لا أتذكر كثيراً كيف جرى الموقف. كنا على حافة الطريق نرتع أسفل فيء نخلة، وكنت في صدد الاعتراف له حين غافلنا أحد الكلاب الشاردة. فأفزعني عواؤه البغيض، وكردة فعل دفاعية وجهت له في أقل من ثانية طاقة سيكوفي، لتخرج الدماء من كامل أنحاء وجهه ثم ينقلب على الأرض

وهو يختنق، حتى اعتصرت قلبه المرتعد وأنهيت حياته.

حين توقفت لاحظت يدي الممدودة صوبه، وأنفاسي المسرعة والتفت لأرى خالد وقد وقف مذهولاً من هول ما رأى.

- ماذا حصل؟!!

قال لي وهو يبتلع لعابه خائفاً مني.

ما سأعترف به أريد أن يكون سراً لا يمكن لأحد سواك أن يعلم به.

هز رأسه في إشارة لاستيعابه طلبي، ثم قصصت عليه تفاصيل سيكوفي، وسر ذلك المجلد الذي انتشلني من جحيم ضعفي وجبني. لم يبد أي حركة لكنه كان تائهاً في المساحة الضيقة لعقله، لم يكن بمقدوري قراءة ما يفكر به كانت اللغة تمكنني فقط من السيطرة والتحكم بدماغ الضحية لتنفيذ كل الأوامر، بالإضافة للقتل بأي وسيلة أراها تشبع شغفي للانتقام وشراهة قلبي للموت.

- إنها اللغة التي أنقذتنا معاً يا خالد!

- لا يمكن هذا، إنه سحر خطير!!

ارتبك في محاولته التعبير عما يجول بخاطره واستأذن مني للمغادرة وقد بان عليه القلق كثيراً. من الطبيعي جداً أن يجفل وتنتفض أوصاله أمام عظمة هذه اللغة. سيعود غداً وقد استقرت حاله، وخطر في ذهني وقتها أنني سأساعده في سبر أسرار سيكوفي، ثم أقدم له على طبق من ذهب بعض الرموز ليكتشف مقدار سطوتها الكبرى.

ربما رفعت حينها سقف توقعاتي حين عدت لانتظاره في المكان ذاته المخصص للقاءاتنا.

- سيأتي بالتأكيد...

قلت وقد انتظرت وقتاً طويلاً دون نتيجة. اختفى صديقي ولا أكذب حين أعترف بالإحباط المرافق لغيابه غادرت وأنا ألملم خيبتي، لأعود في اليوم التالي على المنوال ذاته، ولم يأت أيضاً.

- أسبوع كامل يا غبي!!

صرخت بأعلى صوتي حين رأيته قادماً صوبي. لم أخش نعتي له بتلك الصفة، فهو يدرك حجم الفقد

الذي عانيته وحيداً. اقترب مني وكان بارد الملامح حينها، فما زال مصعوقاً لما مر به.

- أريد أن أتعلمها....

قال وقد ارتسمت البسمة على وجهي. كنت على أحر من الجمر لأشاركه جمال حفنة من تفاصيلها.

- بالتأكيد سأعلمك. يجب أن تعدني بحفظ هذا الأمر، سيكوفي ستلعنك إن فضحت أمرها.

أضفت الجملة الأخيرة لإخافته قليلاً، انعكست الآية للمرة الأولى من خالد الذي يرعب الجميع إلى المستمع الحذر من كلماتي. سار الأمر كما أردت بعد أن خضت رفقته أمسية مميزة، وعلمته فيها بضعة تشكيلات حروف بسيطة، استطاع عبرها أن يلج لرأس عصفور ويجعله يتقلب كالمجنون في طيرانه، مما أثار في قلبه سروراً وعفوية خالصة من الضحكات المتقطعة.

على مر السنين لم أستطع البوح له بأكثر من ذلك، وهو كان يكفيه معرفة حجم قوة سيكوفي، حتى يتخطى تلك المرحلة الشائكة التي كان من الصعب التوافق معها بسهولة مع اختفاء أبي لطالما بقينا

معاً أمام منزلنا وداخله، وأصبح مثل الأخ الذي لم تلده أمي أمي التي عاملته أيضاً كأحد أفراد المنزل.

حتى بعد أن قررت الزواج بواحدة من أجمل فتيات الحي، لم نتأخر عن اللقاء، بل بقي كالظل المرافق لي وقد ائتمنته على البيت كأنه فرد منه، ولطالما طلبت منه انتظاري حتى في أثناء اضطراري للخروج لإنجاز عمل ما كان هذا حجم العلاقة الرائعة الأخوية التي جمعتني به والتي بادلها على حد علمي بكل خلق وأمانة.

أعادتني للغرفة طاقة اللغة القوية. أرادت تحذيري من قدوم أحدهم، حيث استمعت لخطوات ثقيلة تحاول فتح الباب، إلا أنها توقفت حين جاء الحارس البغيض رفيق طلال، ليطلعه على بعض الأخبار.

- توفي سعيد وأدريان.

- سعيد وأدريان كيف، ماذا تقول؟

صدح صوت أحمد متعجباً ومرتبكاً.

نعم يا دكتور، وصلنا الخبر ولا أحد يفهم سبب ذلك.

- ماذا تقصد؟

كما تدري غادر الطبيبان قبل ساعتين لإجراء جراحة خطرة لشاب تعرض لحادث سيارة، ثم وفي منتصف العمل، استل أدريان بلا سبب مشرطاً وبدأ بتشطيب وجه الشاب، ليحاول سعيد منعه فينهال عليه هو الآخر بالمشرط طعناً في رقبته إلى أن قطع بلعومه، ثم يبادر أدريان بغرز مقص في عينيه، حتى انتهى أيضاً ببتر أوردة يديه.

انقطعت أنفاس الدكتور أحمد مع سماع ما حصل، ثم استدار دون أن ينطق كلمة وغادر المكان تحسست برودة وجهه مع انخفاض نبضه، وكان على وشك السقوط، إلا أنه تمالك نفسه.

((انفجر فمي بالضحك بقوة، دون أن آخذ حذري من أن يستمع أحد لي. كم كان شعوراً عظيماً حين علمت مقدار السيطرة التي أمتلكها، وأكاد أرقص فرحاً لموتهما))

لن أعلق الآن في شرك البحث الدائم عن الانتقام، ربما يجب البحث فعلياً عن أفضل طريقة لتجاوز هذا المكان دون أن أفضح أمري وأجعل اختفائي

يبدو كحادثة، ويمكن الاستعانة بأحد الحراس الإخراجي من هنا في منأى عن نظرات الحراسة المشددة. قد توجد أيضاً بعض كاميرات المراقبة التي ستخرب العملية.

إذاً يجب في البداية إفساح المجال وتهيئة الطريق الآمن حتى البوابة.

صار هوس الخروج من هنا أشبه بإدمان، لكن لن أستعجل قد يكون لسيكوفي رأي آخر. من المؤكد أن لها سيطرة مثلي على أفكاري. لكن حتى الآن لم تظهر تلك اللغة نفسها أمامي لم تعلن نيتها البوح بمكنوناتها وخفاياها. ربما من المبكر التفكير بذلك، ولن أكون أنانياً في طلبي وقد قدمت لي مجداً وقوة لم أكن لأحلم بهما.

منتشياً بقتل أدريان وسعيد تسللت إلى الباب أحاول الاستماع إلى أي حركة قريبة. لا أحد هنا الجميع مشغولون بتناقل أخبار الموت العاجلة، وقد تصل الحال إلى نسيان وجودي هنا، فلم يعد الدكتور أحمد والذي قلما يتأخر عن مواعيده، وهو يعلم جيداً وجوب الالتزام بالخطة العلاجية.

- هل من أحد هنا؟!!

صحت بأعلى صوتي دون أي استجابة كأن الأرض شقت وابتلعت الجميع. قمت بالطرق على الباب لكن أيضاً لم أسمع سوى صدى ضرباتي المتواترة. حتى مع تكرار الطرق المرتفع لم يأت أحد. انتظرت أن تشتعل داخلي قدرة سيكوفي، لأحطم الحديد المصفح.

((أنا قنبلة موقوتة أحيا على الألم، على الخوف وعلى دماثة الآخرين))

إذاً لا بد من التروي وانتظار الوقت المناسب لأعلن الهلاك القادم بصورة بشري. أنا صورة جنان المثلى.

- أنا الموت!!

همست مغمضاً عيني كي يصبح الملل السام ترياقاً، حيث من الأفضل أن أحافظ على اتزاني، وبجميع الأحوال لن يتأخر أحمد بالقدوم أكثر من ذلك. استسلمت للهواء النازف عبر شقوق الحديد. يمكن للنسمة أحياناً أن تغدو أنيسة للروح للذاكرة، أن تعيد تشغيل شريط آخر من الماضي.

قد يصبح هذا الشريط نقطة علام للعودة دائماً إلى الصواب، وقد يصبح لعنة أيضاً. ففي خضم كل ما حدث أوجس قلبي الشك ذات يوم، أذكر أنني كنت عائداً من العمل باكراً ومتوعكاً بسبب نزلة برد حادة.

حين وصولي كان المنزل كالعادة هادئاً. ولجت للداخل لا حيلة لي على نداء زوجتي مها، لأتجه نحو المطبخ حيث قابلت أمي هناك وهي تتكلم عبر الهاتف المحمول، الذي سقط من يدها حين فوجئت بوجودي خلفها.

- لقد أفزعتني يا عزيزي!

قالت وهي ترتجف.

- أعتذر اعتقدت أنك سمعتني أدخل.

عادت لتتماسك من جديد، ثم انحنت لالتقاط الجهاز الصغير، لكنني كنت أقرب إليه فما كان علي سوى الانخفاض لأخذه قبلها.

- تفضلي.

قبل أن تمسكه، سقطت على أذني قهقهات مألوفة، ومع محاولة أمي منعي من التنصت للاتصال الجاري، شعرت وقتها بوجود خطب ما مريب. كانت تلك ضحكة مها وهي تتحدث مع أحدهم، قبل أن تنادي على أمي.

لم تتوقع مها أن الصوت التالي القادم كان أنا.

- أين أنت، وماذا تفعلين في الخارج؟

تم إغلاق الهاتف فوراً من قبلها، دون أن تشرح أو تجيب على أسئلتي، فأعدت الاتصال لكن حينها كان هاتفها قد أصبح خارج الخدمة. تربيتنا المنزلية ومن باب الاحترام والتقدير للزوج حيث نقطن تقتضي على الزوجة أن تخبر زوجها عن كل حركة تقوم بها، خاصةً في الأمور المتعلقة بحاجتها للذهاب للتسوق، فلم تذهب مطلقاً قبل ذلك بمفردها ، لطالما خرجنا معاً أو أقله رفقة أمي.

- ماذا يجري يا أمي أين مها ومع من كانت تضحك؟

صرخت بوجهها للمرة الأولى، لكنها أبت الإجابة وبالأحرى ترددت كثيراً وبدأت بسرد أسباب واهية تخفي تحت طياتها كذباً واضحاً. أردت لهذه

الذكرى أن تكون مجرد كابوس واشتهيت العودة بكل ما أوتيت من قوة للواقع لكنني علقت لسبب ما هناك.

- لقد أرسلتها لتحضر لي بعض لوازم الغداء.

قالت والخوف الظاهر على محياها يجعل وجهها الممتلئ يتعرق بشدة رائحة تلك النقاط تؤكد الريبة المشتعلة في صدري. استشطت غضباً لدرجة اهتزت الأواني في المطبخ من حولي، مما دفع أمي للتقدم واحتضاني حتى أهدأ.

- لا تفعل شيئاً أرجوك.

لم أفهم قصدها، إلا أن محاصرتها لي كانت أشبه بالاعتراف بذنب اقترفته.

- ابتعدي عني!

دفعتها وأنا أصرخ أريد اكتشاف اللعبة الجارية. لم أستطع عبر سيكوفي التوصل للحقيقة، وربما اللغة أبت أن تظهرها لي. لا يزال صدى ضحكاتهما يستنزف طاقتي. كانت رفقة أحد الرجال بغطاء واضح من أمي.

- خائنة!! خائنة!!

قلت وخرجت للصالة وقد باشرت برمي وتحطيم الأشياء التي توجد في طريقي. لم أتوقف حتى امتلأت الأرضية بالزجاج والخزف وبعض الأرائك واللوحات المتكسرة.

ما زلت مقيداً ومجبراً على الاستماع والمشاهدة. قوة قامت بتثبيت جسدي بالكامل، ووضعت لاصقاً على جفني كي أتابع النظر غصباً عني.

لم تعد مها إلى المنزل، هي تنتظر خائفة في مكان ما تخشى مواجهتي. لا أعلم كيف قادتني المصادفة لاكتشاف ريائها، لكن دور أمي في القصة أجج غيظي.

تقريباً حل المساء أمي انزوت في غرفتها وصدى بكائها يرن في أذني، ولم تأت زوجتي اتخذت بين الأثاث المتحطم مقعداً وأرخيت رأسي أجرب استيعاب ألم الخديعة، ثم وبعد دقائق من جهازي، وكانت مها.

- أنا لم أعد أحتمل....

خرجت الكلمات من ثغرها وهي تشرح سبب هروبها.

- أنت لست جاسم نفسه الذي تعرفت عليه، هناك لعنة تحيطك.

استغرقت بعض الوقت لأفهم قصدها، لكنها أصرت على أن خطباً ما أصابني، لذا حاولت تمالك نفسي بعد جهد كبير لأستفسر عن غايتها.

- لم أفهم قصدك.

هناك ظلام داخلك لا أستطيع وصفه، تهذي أثناء نومك بالموت وبرائحة الدم، لقد مرت أكثر من سنتين منذ زواجنا وحالتك تغدو أسوأ كل يوم.

- أصبحت أنا السيئ الآن!

أعلم حقيقة شكها لكنني أخفيت على الجميع قدرتي كيف لها أن تتهمني بأمر تجهله وتدعي معرفته.

- أنت بالتأكيد تهذين، لم أتغير يوماً منذ عرفتك.

حاولت عدم الخروج عن طوري مجدداً، في سبيل أن أكتشف حقيقة معرفتها للقوة التي أمتلكها.

يجب أن أمنعها من فضح سيكوفي، وأستطيع ذلك الآن، لكن لا أريد أن أخسرها لقد أحببتها بالفعل، وأنوي الاستمرار بذلك.

- أين أنت الآن؟ اعلم إنني لست على ما يرام وسأحارب لأعود كما تريدين أنا أحبك جداً ولا أستطيع تحمل فقدانك، وأقسم لك سأعترف بكل شيء.

غاب صوتها عن السماعة لثوان، ثم عادت لتتحدث بعد أن انطلت عليها كلماتي.

- أنا في منزل أهلي هل تستطيع القدوم لأخذي؟ لقد حل الظلام، وأريدك أن تعلم أنني لن أفكر يوماً في خيانتك.

أغلقت الهاتف وانطلقت لغرفة أمي، التي تنفخت عيناها من كثر البكاء، حيث قمت بالاعتذار منها على ما اقترفت بحقها، وطلبت منها مرافقتي لجلب مها وقد وافقت على الفور.

تتطاير الصور أمامي، وقد استعدت بعض السيطرة على غضبي لأفهم جيداً ما هو قادم.

- هل هدأت؟

- نعم لا تقلقي، لقد أثر المرض على حالتي ولم أتحمل الصداع المرافق، أما الآن فأنا بالتأكيد بخير.

ابتسمت وتابعت طريقي في السيارة حتى وصلت المنزل أهل زوجتي التي كانت واقفة في عتبة الدار على أهبة الانتظار لاستقبالي.

- تفضل يا صهرنا العزيز.

قال والدها الشيخ المسن، لكنني اعتذرت له عن الدخول بحجة مرضي بعد أن ألقيت التحية عليه.

التفت عائداً بعد صعود مها إلى السيارة وجلوسها خلفي، دون أن أفتح معها أي نقاش. اكتفيت بأن ابتسمت فقط عبر المرآة، ثم تابعت على الطريق السريع.

كنت أسرع قليلاً حينما قامت أمي برجائي لتخفيف السرعة، لم أستطع الخضوع لطلبها، بل استمررت برفع السرعة حتى بدأت مها بالصراخ فزعاً، حتى قامت بالتمسك بالمقعد وخفض رأسها للأسفل.

في طريقي قابلتني إضاءة سيارة قادمة، وما أن وصلت لقبالتي تقريباً حتى رأيت وجه السائق.

- إنه هو!!

تذكرت كيف تم الأمر. لم أكن لأدمر سعادتي هكذا، لذا كان من الأفضل أن نموت جميعنا، قررت ذلك في أقل من ثانية، حين دخلت لرأس السائق الذي كان أدريان نفسه، وجعلته يصطدم بنا، حيث ولأول مرة لم أجرؤ على القيام بهذا الأمر وحدي.

انقلبت السيارة أكثر من مرة. كانت الشظايا تتطاير في كل مكان اختفت ملامح وجه مها الذي تمزق بفعل اصطدامه بزجاج الواجهة الأمامية للسيارة، لتخرج من الأمام وتتدحرج على طول الطريق، بينما تلقت أمي عديد الضربات على رأسها، وانفجرت الدماء لتغطي وجهي.

توقف كل شيء، صدى الفرامل والإطارات المنزلقة الحديد المسحوق والزجاج المتشظي، حتى الأنفاس القريبة مني كنت على وشك فقدان الوعي حين اقترب أدريان من سيارتنا، وهو مرتعب لا يعلم كيف قام بالاصطدام بنا. لقد نجا من الحادثة

رفقة آخر والذي من المؤكد أنه كان الطبيب سعيد.

- "كيف نجوت أنا؟!".

ظل السؤال عالقاً في رأسي، فقد تسببت بقتل زوجتي وأمي سدئ.

- هناك بعض النبض، ساعدني على إخراجه.

سمعت صوت أدريان الذي أراد إنقاذي لتبرئة ضميره حيث حاول رفقة سعيد سحبي من النافذة المحطمة بينما كانت الدماء السائلة على وجهي تجعل الصور حمراء للغاية، وتبقي حولي بعض الأصوات العميقة التي جاء أحدها صارخاً:

- جاسم، عد لمكانك!!

اختلط علي الصخب القادم، ثم فتحت عيني المفعمتين بالنقمة، لأصعق بوجود الحارس الكريه أمامي، حيث كان يمسك بياقتي ويحاول دفعي إلى الداخل بعيداً عن الباب.

- "انتهى شريط الماضي. صار الواقع حتمياً لأواجهه، لذا لن يقف أحد الآن بوجهي، لم يعد لدي ما أخسره".

بقوة لا أستطيع وصفها دفعت الحارس عني، الذي سقط على الأرض وعاد كالثور لمهاجمتي وقد انتشل من جيبه حقنة يبدو أنها للحالات المستعصية. لكن ما أن التقت عيناه بي، حتى أوقفته في مكانه، فقام بفتح فمه وطعن الحقنة في لسانه ليسقط على الأرض في عدة ثوان.

تابعت طريقي إلى الخارج، فقابلني على أثر الضجيج بعض الحراس الآخرين الذين جربوا أيضاً بشراسة إيقافي، إلا أنني سيطرت تماماً على أفكارهم، لأقودهم أمامي مثل قطيع الخراف وهم يفتحون الباب تلو الآخر إلى أن وصلنا إلى المصعد الوحيد في الردهة وغادرت وحدي بعد أن أمرتهم بالبقاء خلفي.

كان البناء مكوناً من طابق واحد. وصلت إلى الطابق الأول بعد انتهاء جحيم ذاك القبو القذر، ليفتح الباب على فسحة شاسعة تحوي ممرضاً غلب عليه النعاس لكنه ارتعد من خروجي وحدي من المصعد.

- توق.....

لم يكمل الممرض جملته حتى توغلت داخل رأسه لينطلق على الفور إلى غرفة خارجية تحتوي مولداً كهربائياً، حيث أحضر غالوناً بلاستيكياً كبيراً ممتلئاً بالوقود وصبه على كامل الممرات المحيطة بالصالة الرئيسة، وأشعله وهو يقف في وسط النار لا يشعر بأي ألم.

كنت حينها قد وصلت إلى البوابة الخارجية حيث اختبأت خلف بعض الأشجار، وفي غفلة عن الحراس والممرضين الذين غرقوا في الفوضى الحاصلة، تسللت عبر الطريق الرئيس إلى حيث أنتمي إلى منزلي.

قادتني الغريزة على الطريق، بينما خلفي كانت النيران المستعرة تأكل كل ما في طريقها، وضجيج صراخ المرضى المحتفلين بالنار يحلق في كل مكان، وبعد مسير لساعات والتخفي على أوجه المارة والسيارات وصلت إلى المنزل الذي بقي كما هو مع بعض الحشائش العبثية التي نمت في الخارج.

كان ضوء الفجر على وشك الخروج، ولم يكن أحد في الشارع، فسارعت لكسر الباب الذي فقدت

مفاتيحه، ثم تسللت إلى الداخل لجلب مجلد جنان والمغادرة، ولكن لم أعثر عليه، كان في صندوق سري خبأته على السقيفة، ولا أحد يعلم بأمره على الإطلاق.

- لا ليس على الإطلاق، إنه يعلم مكانه أيضاً!

انتقل الشك كله إلى صديق طفولتي، إلى خالد.

- هل يعقل أنه خانني؟

صراع محتدم دار في خلدي. لا يمكنني أن أثبت أنه الفاعل إلا بطريقة واحدة، يجب علي اقتحام عقله وإجباره على القدوم إلي كانت تلك الفكرة الوحيدة الجلية التي لمعت في فكري، لذا ما كان علي سوى المحاولة.

كأنني أراه الآن أمامي، يقف بكل صرامة وشدة. لا شيء يفزعه يختال في مشيته ويتباهى بأن لا أحد يمكن أن يكون نداً له. أزيد في النقب داخل رأسي عن صوره المعلقة الشاردة والغضب يتملكني أكثر وأكثر.

لكن ما أن جربت التوصل له من أجل إعادة لم شملنا، لأثبت أنني ربما كنت على خطأ وكان شكي

في غير محله، حتى منعتني قوة أكبر من الذهاب أبعد من عتبة المنزل.

-إنه هو بالفعل، لقد خانني الوغد الآخر!

يكاد قلبي ينبجس من بين أضلاعي حقداً، حيث غدت أنفاسي المتسارعة أرضاً قاحلة جائعة للدمار والخراب.

لا أعلم ماذا أفعل، وأخذني الغضب لأستذكر سجن المستشفى، وما حل به، حيث توغلت إلى رأس الطبيب أحمد الذي كان يتحدث إلى أحد المحققين، الذي يدعى سامي ذكر اسمه أكثر من مرة في سياق الحديث، وهو يكرر قول: سيادة المحقق سامي" عدة مرات.

لم أعلم بما يجول في فكره فقد كانت مجرد ثغرة لاستراق السمع، حيث دار الحديث التالي:

- كما أخبرتك لا نعلم أين اختفى، لكن يصر أحد الحراس على أنه تسبب بمقتل عدة أشخاص، دون أن يحرك ساكناً.

- كيف يمكن ذلك؟

- لا أعلم يا سيدي ولكنه ترك خلفه بعض القصاصات الغريبة.

- أرسلها لي مع باقي الأدلة كي أقوم بدارستها، وعلى العموم إن كان الكلام صحيحاً، فإنه يمارس سحراً أسود خطيراً.

- نعم، إنه أحد الاحتمالات.

- إذاً أيها الطبيب، يجب أن تحذر جيداً لكل ما تقوله وتفعله، واحرص أن يظل هذا الشك داخل أسوار المستشفى ريثما ننهي التحقيق، وإن صحت شكوكنا فإن بمقدرته الدخول إلى رأس الضحية وقتلها بطريقة ما.

عم صمت مطبق، بينما أحاول الإنصات بكل حماس لأعلم ما القادم، لا بد لي من التخفي بعيداً عن المنزل. لعلهم يضعون احتمالية عودتي إليه من ضمن الاحتمالات القائمة، لذا سأبتعد قدر الإمكان، وأضع خطة ملائمة في البداية للنيل من خالد، وكل من حاول اعتراض سبيلي. لن يشفع أحد للانتقام القادم.

- "أنا قادم إليكم أيها اللقطاء!!".

قبل أن تخطو قدمي خارج باب المنزل، قاطعني الطبيب أحمد وهو يعيد صياغة كلام المحقق بطريقة ترعبه، لقد شعرت بخفقان قلبه المسرع، حيث قال:

((كيف نستطيع القبض على مريض خطر يقتل من خلال الحلم، ومن خلال التخاطر؟!))

جاءت بعدها إجابة المحقق الباردة لتزيد من فزع الطبيب:

- إن استطاع ذلك فعلاً، فأنت الآن في خطر شديد وعليك توخي الحذر!

يكاد قلب أحمد يخرج من مكانه، وتكاد أنفاسه المتسارعة تخنقه كان مجرد الاستماع إلى تلك الموسيقا الصاخبة أشبه بالمخدر.

- لن أقتلك ما أجمل خوفك ستكون غذاء الروحي لقادم الأيام.

صرخت وأنا أضحك دون توقف، بينما كنت أغادر المنزل للمرة الأخيرة.

تلك الكلمات لم تكن مجرد استفسار، بل نداء لكشف أسرار تلك القوة الغامضة التي تتخطى حدود الواقع المعهود. في الخلفية، أصوات الأجهزة تعمل بانتظام، وكأنها تضيف إلى التوتر الذي يسيطر على الأجواء، معلنة عن بداية فصل جديد من التحديات التي تنتظر الطبيب والمحقق في مواجهتهما لعدو لا يمكن توقع خطواته.

نهاية الجزء الثالث

(لعبة المحققين)

الجزء

الرابع

لقد انهيت الكتاب

موافق

الساعة السادسة والنصف صباحاً تقريباً، يتبقى ٠ صفحة ١٤٦/١٤٦

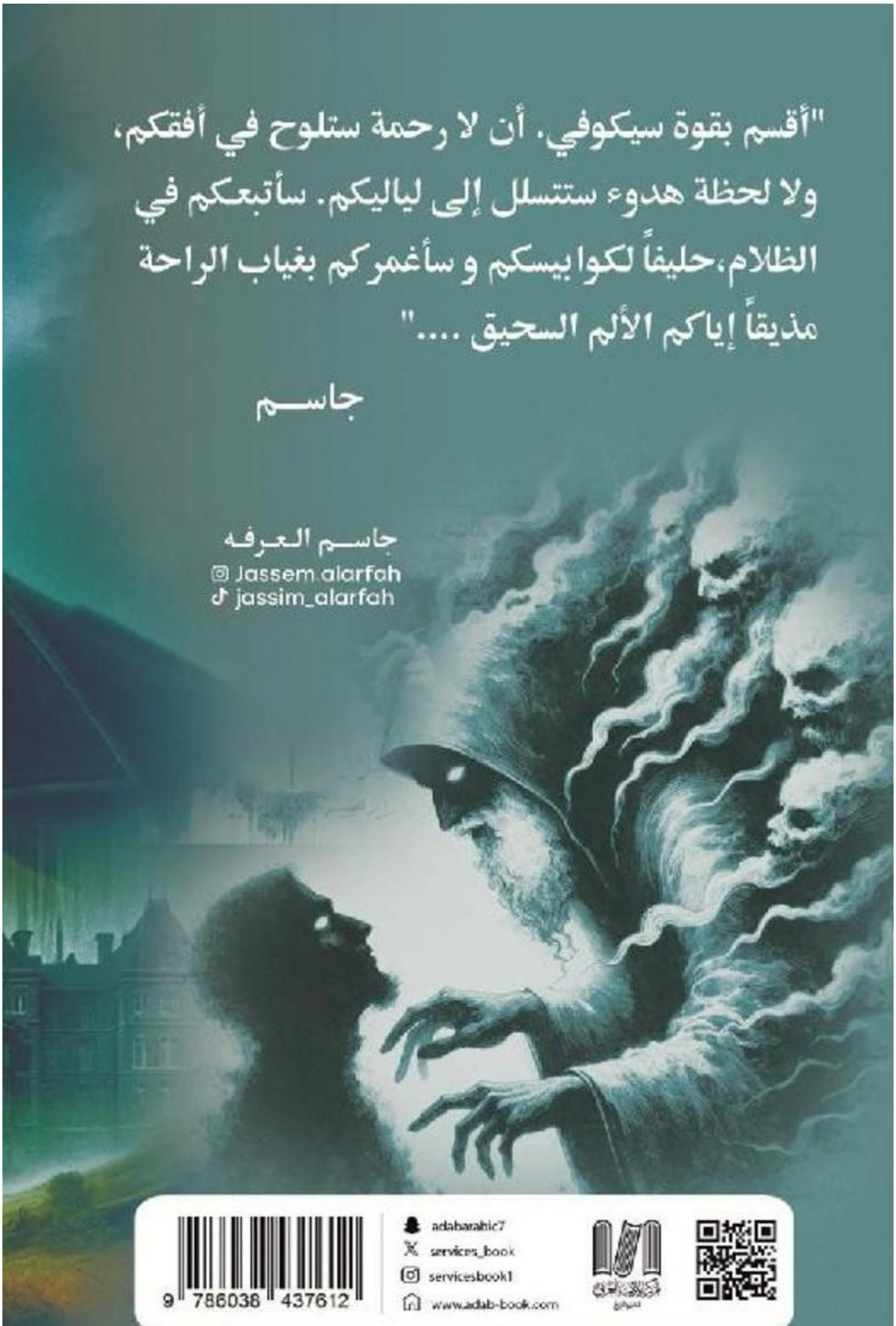
"أقسم بقوة سيكوفي. أن لا رحمة ستلوح في أفقكم،
ولا لحظة هدوء ستتسلل إلى لياليكم. سأتبعكم في
الظلام،حليفاً لكوابيسكم و سأغمركم بغياب الراحة
مذيقاً إياكم الألم السحيق ...."
جاسـم
جاسم العرفه
Jassem.alarfah
jassim_alarfah
adabarabic7
services_book
servicesbook1
www.adab-book.com
9 786038 437612